

محمد بن موسى الشريف

مقيـاس
العمل المؤثـر

تأليف

محمد بن موسى الشريف



الطبعة الأولى للناشر

١٤٣٤هـ/٢٠١٣م

رقم الإيداع: ٢٠١٢/٢١٢٨٥

الترقيم الدولي: I. S. B. N

978 – 977 – 265 – 978 – 4

مركز السلام للتجهيز الفني
عبد الحميد عمر
٠١٠٠٦٩٦٢٦٤٧

دار التـوزيع والنـشر
ش.ذ.م.م.

مصـر-القاهـرة -السيدة زينب ص. ب ١٦٣٦

٢٥١ ش بورسعيد ت: ٢٣٩١٢٧٤٠ - فاكس: ٢٣٩١٧٩٥٦

مكتبة السيدة: ٨ ميدان السيدة زينب ت: ٢٣٩١٧٩٥٠

www.eldaawa bookshop.com

Email:d.eltwzea@gmail.com



مقدمــــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذا كتاب هادٍ إلى مقدار العمل الذي ينبغي أن يقدمه الشخص العامل حتى يكون من العاملين المؤثرين، والبانين المنتجين، وهذه مسألة مهمة في دنيانا اليوم؛ وذلك أن كثيرًا من الإخوة العاملين والأخوات العاملات يظنون أنهم يعملون ويجتهدون، لكنهم إنما يعملون خارج منطقة العمل المؤثر المنتج، وتمضي بهم السنوات الطوال وهم ما زالوا يراوحون مكانهم أو يتقدمون تقدمًا غير مؤثر، وهذا يعود إلى جملة عواملَ سلوكية وحركية ونفسية [1]، تُنقص عمل هؤلاء وتؤثر في مسيرتهم وعطائهم وإنتاجهم، وتبعدهم عن المنطقة المؤثرة المغيِّرة النافعة.

---

(١) ليست هذه الرسالة لبيان هذه العوامل، فقد أفردت لها مكانًا آخر في كتب مثل: «عجز الثقات»، و «أثر المرء في دنياه»، و «الهمة طريق إلى القمة»، و «الثبات».

والقضية خطيرة؛ إذ العمر يمضي سريعًا، والتحديات القائمة في وجه الدعاة والصالحين كبيرة وكثيرة ومتنوعة، ولا بد للأخ وللأخت ألا يرضيا ببذل القليل من الأوقات والأعمال والأموال؛ لأن هذا يفضي بهم إلى نتائجَ محدودة وقاصرة عن الغاية التي يتطلعون إليها، والمعالي التي يطمحون لإحرازها، وهذا هو السبب الرئيس البارز في عدم وصول الأكثرية من الدعاة والصالحين إلى أهدافهم التي وضعوها، وأنهم يراوحون مكانهم في منطقة أسميها «المنطقة الرمادية»، وهي ليست بمنطقة عدم العمل السوداء، ولا هي في منطقة العمل المؤثر البيضاء[1]، وأخشى أن يكون هذا من استدراج الشيطان لهم وخداعه إياهم حتى يُشعرهم أنهم عاملون ومنتجون ومؤثرون وهم في الحقيقة ليسوا كذلك، وإن كانوا على خير وصلاح لا جدال فيه لكن ليست مرتبتهم هذه - التي هم فيها - هي المرتبة اللائقة بهم، ولا المنزلة التي ينبغي أن يُنزلوها أنفسهم.

ولي الآن في الدعوة إلى الله تعالى نيفٌ وثلاثون سنة، لقيت فيها كثيرًا من الدعاة والصالحين وطلبة العلم والمشايخ، وعرفت منهم ومن أعمالهم ونشاطهم قدرًا كبيرًا، وسبرت غور طرائق تفكيرهم، ووسائل عملهم، وكنت من كثير منهم قريبًا، وأرى -

---

(١) سيأتي قريبًا الحديث عن منطقة العمل المؤثر وحدودها، إن شاء الله تعالى.

بعد كل هذا الذي ذكرته- أن هنالك تفاوتًا في عمل هؤلاء يتلخص في الآتي:

١) بعض هؤلاء لا يكاد يعمل شيئًا ذا بال، وهم قلة - ولله الحمد والمنة - لا تكاد تصل إلى العشر.

٢) وكثير من هؤلاء يظن أنه يعمل لخدمة الإسلام ويقدم ويبذل، لكني رأيت أن ما يعمله وما يقدمه هو نَزْر يسير بالمقارنة بقدراته وما يستطيع أن يعمله ويقدمه، وهم عدد كبير أقدره بقرابة نصف مَن قابلته وعرفته.

٣) وكثير -أيضًا- من هؤلاء يعمل وينشط لكنه ليس متميزًا في عمله، وليس هذا العمل قويًّا إلى الحد الذي يؤثر في الأوضاع وينتقل بها إلى الأوضاع المرجوة، وهم عدد كبير أقدره بالثلث تقريبًا أو ٣٠٪.

٤) وبعض هؤلاء الذين عرفتهم ولقيتهم كانوا متميزين حقًّا ونشطين، ومؤثرين، وهم -في تقديري- لا يتجاوزون العشر.

هؤلاء هم مَن قابلت وعرفت -وهم عدد كبير كما أسلفت- وهذه تقديراتي التي هي قائمة على الظن والتخمين والاجتهاد في ذلك، وليس هنالك قطع في هذا الباب، والله أعلم.

وهنا يثور أمر مشكل عندي فكرت فيه طويلًا، ونظرت فيه، وقلبت فيه الأمور سنين ذواتِ عدد، ألا وهو: كيف يُعَدُّ الشخص عاملًا؟ وكم من ساعات لا بد أن يبذلها حتى يُعد عمله مقبولًا أو جيدًا أو متميزًا؟

بمعنى آخر وبلغة العصر: إذا أردنا أن نُقَوِّم عمل شخص ما بالنسب، فمتى يحوز الشخص على ٥٠٪ أو ٦٠٪ أو ٧٠٪ أو ٨٠٪ أو ٩٠٪ أو أكثر أو أقل؟

وكيف تقاس الأمور المعنوية؟ وذلك لأننا نستطيع قياس الأمور المادية بمقاييسَ حديثة معروفة، لكنني لا أعلم أن الهمة قد قيست، ولا العواطف قد قيست، ولا الثبات على المبادئ قد قيس، إلى آخر ما لم يُقَسْ من المعنويات.

بل أتجاوز ذلك لأقول:

✍ **هل** قاس أحد القدر المطلوب من القراءة اليومية أو الأسبوعية ليُحَصِّل المرء الثقافة المطلوبة في شقيها الإسلامي والإنساني.

✍ **وهل** قاس أحد عدد المواعيد التي يُخلفها المرء ليُعَد متهاونًا أو منضبطًا في مواعيده؟

✍ **وهل** قاس أحد قدر الأثر الذي يتركه الشخص من بعده

من حيث الجودةُ وعدمها، ومن حيث الكفاية وعدمها؟

✍ **وهل** قاس أحد قدر التهاون في الالتزام ليُعَدَّ الشخص به ضعيفًا في التزامه أو متوسطًا؟!

✍ **وهل** قاس أحد قدر العبادات التطوعية كالصلاة والصوم التي يعد بها صاحبها عابدًا؟

وهناك عشرات الأمور غير ذلك تفتقر إلى المقياس الدقيق، وإنما ضربت بعض الأمثلة لأدلل بها على صعوبة الموضوع وتعقده لا على توقف أصل مشروعيته على قياس.

وليس هذا عند المسلمين فقط بل إن الغرب -أيضًا- ليس عنده مثل هذه المقاييس، ربما لقلة حاجته إليها.

ومكمن الصعوبة في هذا العمل هو التالي:

١) أني لم أرَ مَن حاول ما حاولت في وضع النسب المئوية للأعمال المعنوية، أو جرى على هذه الطريقة من قبل، وهذا هو ما يعاني منه كل مَن طرق أمرًا أو أراد شيئًا ليس للناس به عهد من قبل.

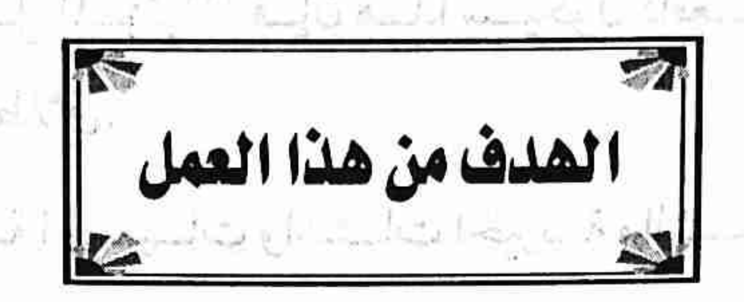
٢) أن هذا من الأمور المعنوية غير المحسوسة ولا الملموسة، وما كان شأنه كذلك فقياسه من الصعوبة بمكان، أو يكون أقرب إلى التعذر منه إلى الإمكان.

٣) وأن هذه المسألة حتى لو قيست فستظل مثار جدل كبير؛ لأن المقياس في الأمور المعنوية لا يمكن أن يكون إلا أمرًا اجتهاديًّا، وشأنًا تختلف فيه الأنظار، وتفترق فيه الأقوال، وتضطرب فيه الأفكار، فمِن راضٍ مُثْنٍ قابل، إلى رافض أو مشكك أو حائر، وحسبك بهذا عنوانًا للصعوبة، ومثارًا لنقاش وجدال طويل.

٤) وأن هذه المسألة من الأمور الحاكمة على الناس، ففريق سعيد عامل، وآخر بعيد ناظر، وهذا مما قد يؤثر إيجابًا أو ربما سلبًا على عدد كبير من الناس، وفي هذا ما فيه.

- لكني رأيت أنه لا بد مما ليس منه بد، وأننا في هذا العصر المتشابك المعقد الذي تحكمنا فيه المقاييس والمعايير في شتى جوانب حياتنا لا ينبغي أن نترك هذه الموازين والمقاييس والمعايير في شأن هو العمدة في حياتنا الدنيوية والأخروية، ألا وهو العمل لدين الله – تعالى – والبذل والتضحية في سبيله.

* * *



الهدف من هذا العمل

قد حاولت في هذا الكتاب أن أعمل شيئًا في مسألة تحديد مقاييسَ دقيقةٍ للأمور المعنوية التي ذكرتها وما شابهها، وأردت بهذا تحقيق جملة من الأمور منها:

١) وضع مقاييسَ أقرب إلى الدقة والإتقان، يُقاس بها ما ذكرته آنفًا من الأمور المعنوية كالهمة والثبات، وقياس الأمور التعبدية، وقياس ما شابه ذلك قياسًا يعين على التقويم وضبط المسيرة الفردية لكل شخص على حدة.

٢) إعانة العاملين وتشجيعهم، ذلك أنه إذا وجد مقياس معقول مقبول لَتحاكم الناس إليه، ولَعرفوا مقدار بعدهم أو قربهم من منطقة العمل المؤثر، أو وجودهم في قلبها أو حواشيها، وهذا مما يشجع البعيد على الاقتراب، والقريب على الدخول، ويُبْقي العاملين في منطقة العمل المؤثر، ويبعد عنهم شبح الفتور والضعف والتشتت، فمن عرف مثلًا أنه قد حاز ٥٠٪ من مجموع صفات وأعمال، وأنه قد بقي له ٢٠٪ ليلج منطقة

العمل المؤثر[١] فإن هذا سيكون دافعًا له للتقدم والانطلاق.

٣) إعانة الجمعيات والهيئات الخيرية والشبابية، وإعانة الجماعات، والمؤسسات الدعوية، إعانتهم على تقويم الأفراد الموظفين والمتطوعين، وقياس أعمالهم وأثرها، وأنشطتهم وقدرها، وهذا أمر جليل أرى أن هذه الهيئات والمؤسسات والجماعات في أمس الحاجة إليه لوضع خططها الإستراتيجية، ومعرفة قدر نشاط أفرادها وتجاوبهم مع خططها وأعمالها، إلى آخر ما هنالك.

٤) وضع اللبنة الأولى في صرح علم جديد يمكن أن نقدمه للعالم على أنه علم إسلامي مبتكر، ويمكن إخضاعه لتقسيم حديث يجعل منه مادة تدريبية ثرية يستفيد منها الملايين من الأفراد والكثير جدًّا من المؤسسات والهيئات، وسأكون سعيدًا جدًّا إذا تحقق هذا إن شاء الله تعالى؛ إذ إن جُلّ أو كل الدورات التطويرية التي يُدَرَّب الناسُ بها اليوم هي مستقاة من نظريات غربية قائمة على التصور الغربي للحياة، ولا مانع من

---

(١) ستأتي تفصيلات هذه النسب لاحقًا إن شاء الله تعالى.

الاستفادة من علومهم، لكن أين هي علومنا ونحن قد قدنا العالم حوالي ألف سنة؟ أفليس في هذه الألفِ سنة من القيادة والريادة ما يستحق أن نعرضه على الناس؟

ألا يوجد عندنا في تراثنا الثري الممتد في عمق الزمان ما يمكن عرضه للناس على هيئة دورات تطويرية؟ بلى والله هنالك الكثير لكنه يفتقر إلى الدَّأَب والهمة من الباحثين والمنقبين، ومِن ثَمّ هو محتاج إلى صقل وتهذيب حتى يمكن عرضه على الناس على هيئة علم منضبط له قواعده وتقسيماته؛ ليمكن بعد هذا كله تدريب آلاف من الأشخاص على اكتسابه والاستفادة منه.

ومن هذا التراث الإسلاميّ الثري - كتابًا وسنة وفهوم العلماء - استللت قواعد بحثي هذا -كما سأبين بعد إن شاء الله تعالى- وغرضي تحقيق جملة من الأمور؛ منها أن يساعد هذا البحث في وضع الأسس لهذا العلم الذي أحسبه سيكون جديدًا كل الجدة في هذا العصر، بإذن الله تعالى.

٥) ثمرة هذه المقاييس والمعايير هي تحديد منطقة العمل المؤثر، وحدود العمل المنتج:

ويقصد بها المنطقة التي ينتج عنها تأثير عظيم وواسع، وبقدر الاقتراب من هذه المنطقة - والابتعاد عنها- يكون قدر التأثير.

ـ وينبغي الحرص على الوجود والكينونة في هذه المنطقة، والقضية جد وليست لعبًا؛ فإما الالتصاق بهذه المنطقة والبقاء فيها وإما الضياع خارجها.

ـ ويلاحظ أن المنطقة واسعة لتضم القدرات المختلفة، لكن لها قلب، فالوجود في القلب يعني التألق المطلق والعمل المستمر المثمر، والوجود في الأطراف يعني الحد الأدنى وبينهما يتفاوت التأثير بتفاوت القدرات، وكل ذلك مقبول، إن شاء الله تعالى، لكن من غير المقبول أبدًا أن يخرج الإنسان من هذه المنطقة؛ لأن معنى هذا أن يتضاءل نشاطه وعمله الدعوي ليقترب من نقطة اللاتأثير أو التأثير الضعيف غير المقبول.

حدود منطقة العمل المؤثر:

فليعلم قارئ رسالتي هذه أني أريد بمنطقة العمل المؤثر المنطقةَ التي تعود على الكائن فيها بأحسن العوايد، وترتقي بعمله إلى درجات عُليا، وللمنطقة قلب وأطراف، فمن حاز على ٩٠٪ فما فوق – مما سأورده في هذه الرسالة، إن شاء الله تعالى وأمثاله مما لم أورده لكن يُقاس على ما أوردته – فهو في قلب هذه المنطقة فهنيئًا له.

وأما من حاز على ٥٠٪ فهو في أطرافها.

وما بين الـ٥٠٪ والـ٩٠٪ تتفاوت الأعمال بتفاوت الهمم.

أما من حاز على أقل من٥٠٪ فهو بحاجة إلى مراجعة جادة ليلج منطقة العمل المؤثر.

ملحظ مهم:

قد حاولت أن أجد مساعدة من بعض القائمين على الدورات التدريبية في مجال التنمية البشرية والارتقاء بالذات، فمن قائل لي: إننا لا نعرف أن الأمور المعنوية قد وُضع لها مقياس، وآخر أتاني بشيء لم أرتضه ورأيت أنه لا يفي بعظم الموضوع وأهميته، لكن ذلك أوصلني إلى اعتقاد أن قياس الأمور المعنوية إنما هو أرض بكر أُنُفٌ لم تُرْعَ بعد، وأن الموضوع بحاجة إلى تكاتف جهود ودراسات تفوق طاقة واضع هذه الرسالة، كي يخرج على وجهٍ مْرضٍ، ويُنظر إليه على أنه عمل يمكن إشاعته في الناس وإقناعهم به، لكن حسبي من العمل أني ابتدأته، وطرقت الباب فانفتح لي جزء منه، وما زال بحاجة إلى طَرْق كثير، وعمل متواصل.

❋❋❋

عملي في هذا البحث

١) جمع النصوص من كتاب الله - تعالى - ومن سنة رسول الله ﷺ وسيرته الطاهرة التي هي حجر الزاوية في هذا البحث، والتي فيها تنصيص أو إشارة إلى أرقام أو نسب تساعد في وضع الملامح الأساسية لهذا البحث، وذلك كقول النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لما أراد أن يوصي: «الثلث والثلث كثير» وفهم بعض الفقهاء أن الوصية بالربع خير من الوصية بالثلث، فمثل هذا الحديث وذلك الفهم مساعد على وضع بعض المقاييس في باب الصدقات والهبات والتطوعات، كما سيأتي تفصيله، إن شاء الله تعالى.

وكقول النبي ﷺ «للعامل منهم أجر خمسين منكم»

وكقول النبي ﷺ «إنكم في زمان من ترك منكم عشر ما أُمر به هلك، ثم يأتي زمان من عمل منهم بعشر ما أمر به نجا»

وكل هذا سيأتي تفصيله في مكانه وتخريج أحاديثه، إن شاء الله تعالى.

٢) الاستفادة من كلام أئمة الإسلام في شرح بعض الآيات والأحاديث؛ فقد جاء بعضهم بإشارات نافعة في موضوعي هذا.

٣) الاجتهاد في استخراج قواعد هذا البحث من تلك النصوص والأخبار، ومن غيرها مما استخرجته من قواعد العمل الدعوي والتربوي.

وفي النهاية أقول:

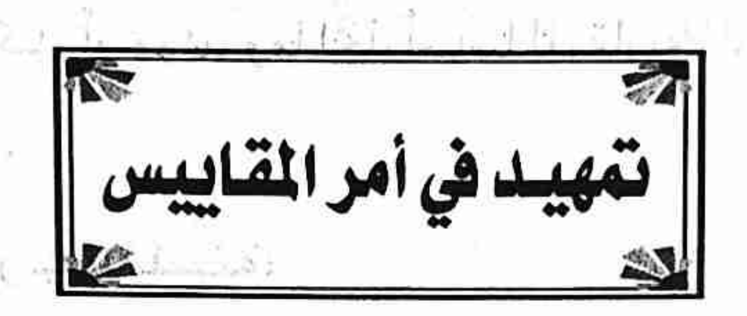
حسبي أن وضعت شيئًا أُنهي به حيرتي الطويلة - التي قاربت السنوات الخمس - في كيفية قياس العمل الذي يقوم به الشخص مما لم يقسه أحد من قبل، في أمور هي غاية في الأهمية في ظني وتقديري، إن شاء الله تعالى.

فإن أصبت فمن الله تعالى، وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان، والله - تعالى - هو المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

والله - تعالى - أعلم وأعظم وأجل وأحكم، وصلِّ اللّٰهم وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه حامدًا مصليًا العبد الضعيف

محمد بن موسى الشريف
mmmalshareef@hotmail.com
www.altareekh.com
facebook.com/د. محمد بن موسى الشريف
TWITTER: DRMOHAMMEDMH



تمهيد في أمر المقاييس

لا بد قبل الولوج إلى مباحث هذا الكتاب أن أبين جملة أمور في شأن المقاييس الواردة في هذا الكتاب، فمن ذلك:

١) تعريف المقياس:

المقياس: من قاس يقيس قياسًا.

والقياس: رد الشيء إلى نظيره(١).

وقاس بغيره وعلى غيره: يقيسه، قَيْسًا، واقتاسه، وقَيّسه: إذا قَدّره على مثاله(٢).

والمقياس. يُقَدّر به الشيء ويُقاس، ومنه مقياس النيل(٣).

والمقياس: ما قيس به من أداة أو آلة(٤).

ومثل المقياس: المعيار، وهو مأخوذ من العِيار: وهو كل ما نُقدر به

---

(١) «المعجم الوسيط» : ق ي س.

(٢) «تاج العروس» : ق ي س.

(٣) المصدر السابق.

(٤) «المعجم الوسيط» : ق ي س.

الأشياء من كيل أو وزن، وما اتُّخذ أساسًا للمقارنة[١]، وهو المقصود في هذه الرسالة.

والمعيار في الفلسفة:

نموذج متحقق أو مُتصوَر لما ينبغي أن يكون عليه الشيء[٢].

٢) خصائص المقاييس:

إن لهذه المقاييسِ التي يراد منها أن تقيس عمل الشخص خصائصَ متعددة، فمن ذلك:

أ- استنادها على الاجتهاد وليس القطع:

فهذه المقاييس بُنيت على اجتهاد قد يصيب ويخطئ، وليس مبناها على قطع، وهذا مؤداه أن يتفاوت تقويمها والنظر فيها من شخص إلى آخر، فما رأيته منها صحيحًا ربما رآه غيري خطأ، وما رأيت منزعه مناسبًا فلربما رآه غيري متكلفًا، وهكذا يتفاوت النظر إليها قبولًا وردًّا، لكن حسبي أني نظرت في شأنها واستللتها على غير هدى عمل سابق من أحد، ولا تجربة سابقة عُرضت للتقويم والنظر والمراجعة، وإنما جاء هذا العمل على ابتكار ونظر أولي كان هذا شأنه.

ومثال على هذا الاجتهاد الذي حاولت هو العدد سبعة

---

(١) المصدر السابق، ع ي ر.
(٢) المصدر السابق.

ومضاعفاته من سبعين، وسبعمائة ...إلخ، هل يصلح لجعله مقياسًا لشيء، ومعيارًا لأمر ما؟

وإنما قلت هذا لأنه قد كثر الحديث عن هذا العدد وشرفه وأهميته، ووروده في كثير من نصوص الكتاب والسنة هو ومضاعفاته، وإليكم ما قاله الحافظ ابن القيم[١] -رحمه الله تعالى- في هذا العدد:

«وأمَّا خاصية السَّبْعِ فإنها قد وقعت قدرًا وشرعًا، فخلق الله - عَزَّ وَجَلَّ - السَّماواتِ سبعًا، والأَرَضينَ سبعًا، والأيام سبعًا، والإنسان كمل خلقه فى سبعة أطوار.

وشرع الله سبحانه لعباده الطواف سبعًا، والسعي بين الصفا والمروة سبعًا، ورميَ الجمارِ سبعًا سبعًا، وتكبيراتِ العيدين سبعًا فى الأولى.

وقال ﷺ: «مُرُوهم بالصَّلاةِ لسَبْعٍ»

«وَإِذَا صَارَ للغُلامِ سَبْعُ سِنِينَ خُيِّرَ بين أبويه»...

وأمر النبيُّ ﷺ فى مرضه أن يُصَبَّ عليه من سبعِ قِرَبٍ.

---

(١) محمد بن أبي بكر بن أيوب الزُّرَعي الدمشقي، شمس الدين ابن قيم الجوزية الحنبلي. ولد سنة ٦٩١، وكان جريء الجنان، واسع العلم، غلب عليه حب ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله بل ينتصر له في جميع ذلك. توفي سنة ٧٥١ بدمشق رحمه الله تعالى. انظر: «الدرر الكامنة»: ٤/٢١-٢٣.

وسَخَّر الله الريحَ على قوم عادٍ سبع ليال.

وَدَعَا النبيُّ ﷺ أن يُعينَه اللهُ على قومه بسبعٍ كسبعِ يوسف.

ومَثَّلَ اللهُ سبحانه ما يُضاعِفُ به صدقة المتصدِّق بحَبَّةٍ أنبتت سبعَ سنابل في كلِّ سُنبلة مائة حَبَّةٍ.

والسنابل التى رآها صاحبُ يوسفَ سبعًا، والسنين التى زرعوها دأْبًا سبعًا.

وتُضاعَفُ الصدقة إلى سبعمائة ضِعف إلى أضعاف كثيرة.

ويدخل الجنة من هذه الأُمَّة بغير حساب سبعون ألفًا.

فلا ريب أنَّ لهذا العدد خاصيَّة ليست لغيره.

والسبعة جمعت معانىَ العدد كله وخواصه، فإن العددَ شَفْعٌ ووَتْرٌ، والشَّفْع: أول وثانٍ، والوَتْر: كذلك، فهذه أربع مراتب: شفع أول وثانٍ، ووتر أول، وثانٍ، ولا تجتمع هذه المراتبُ فى أقلَّ مِن سبعة، وهي عدد كامل جامع لمراتب العدد الأربعة، أعنى الشَّفْع والوَتْر، والأوائل والثواني، ونعني بالوَتْر الأول: الثلاثة، وبالثاني: الخمسة؛ وبالشَّفْع الأول: الاثنين، وبالثاني: الأربعة.

وللأطباء اعتناءٌ عظيم بالسبعة... وقد قال بقراط: كل شيء فى هذا العالَم فهو مقدَّر على سبعة أجزاء، والنجوم سبعة، والأيام سبعة، وأسنان الناس سبعة، أولها طفل إلى سبع، ثم صبي إلى أربع عشرة، ثم مُراهِقٌ، ثم شابٌّ، ثم كهلٌ، ثم شيخٌ، ثم هَرِمٌ إلى منتهى العمر.

والله - تعالى أعلم - بحكمته وشرعه، وقدره في تخصيص هذا العدد، هل هو لهذا المعنى أو لغيره[(١)]؟

«وجاء في موقع الإسلام ويب»: مركز الفتوى ما يلي:

«وللشيخ عطية محمد سالم[(٢)] - رحمه الله - كلام نفيس لخص فيه ما قاله صاحب «العذب الفائض في علم الفرائض»[(٣)] يوضح فيه بجلاء خصوصية العدد سبعة فقال:

«إن الأعداد بعد السبعة مكررة المكرر، وأن نهاية العدد حقيقة هو العدد سبعة، كما يقال بأن المائة تكرار العشرة والألف تكرار المائة، وهكذا.

---

(١) «زاد المعاد»: ٩٨/٤.

(٢) ولد في قرية المهدية من أعمال الشرقية بمصر سنة ١٣٤٦/١٩٢٧، وتلقى في كتاب القرية بعض مبادئ العلوم وحفظ بعض القرآن الكريم. وارتحل إلى مدينة رسول الله ﷺ سنة ١٣٦٤، وتلقى العلم على يد بعض مشايخها، ودرس في المعهد العلمي في الرياض سنة ١٣٧١ ثم درس في المعهد العالي بالرياض أيضًا، ودرّس بالمعهد العلمي في الأحساء، وكلية الشريعة وكلية اللغة العربية بالرياض، ثم عاد إلى المدينة النبوية المنورة ليتولى إدارة التعليم في الجامعة الإسلامية سنة ١٣٨١، ودرّس في بعض كلياتها وفي قسم الدراسات العليا بها، ثم في المعهد العالي للدعوة التابع لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية فرع المدينة النبوية المنورة، وفي عام ١٣٨٤ انتقل إلى القضاء بتوجيه من الشيخ عبدالعزيز بن باز - رحمه الله تعالى - وبقي يترقى فيه إلى تقاعده سنة ١٤١٤. ودرّس في المسجد النبوي الشريف طويلاً. وله عدة برامج إذاعية وتلفازية، وكثير من المحاضرات. له عدة مصنفات. توفي - رحمه الله تعالى - سنة ١٤٢٠ ودفن بالبقيع: موقع «طريق السلف».

(٣) هو إبراهيم بن عبدالله بن سيف النجدي ثم المدني. توفي سنة ١١٨٩، رحمه الله تعالى. انظر ترجمته في «كتاب المؤلفات الفقهية في نجد قبل نهاية القرن الثاني عشر الهجري» تأليف منصور الرشيد ١ - ٤٢.

وبيان ذلك على حد قولهم أن كلاً من الأعداد: واحد واثنين وثلاثة أعداد أولية، أي ليست مركبة من مكرر بناء على أن الواحد ليس داخلًا في العدد وأن ابتداء العدد من اثنين، ثم تأتي الأربعة مجموع الاثنين، والثلاثة والستة مجموع الثلاثة مرتين، والسبعة مجموع الثلاثة والأربعة.

وما فوق السبعة ففيها تكرار المكرر، وتكرار المكرر لانهاية له، فالثمانية تكرار الاثنين أربع مرات، ولو قيل هي مجموع الأربعة مرتين لقيل إن الأربعة نفسها تكرار الاثنين فلا تخرج عن تكرار المكرر، والتسعة تكرار المكرر وهو الثلاثة ثلاث مرات. والعشرة تكرار الاثنين خمس مرات، ولذلك قال ابن القيم: «والسبعة جمعت معاني العدد وخواصه»، وبناء على ذلك يكون العدد سبعة هو النهاية للعدد، وما بعده تكرار المكرر إلى ما فوقه من الأعداد.... والله أعلم».

وقال الفخر الرازي[1] في تفسير قوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذَلِكَ﴾[التوبة: ٨٠]، قال: «قال المتأخرون من أهل التفسير:

---

(١) محمد بن عمر بن الحسن التيمي البكري، الإمام فخر الدين الرازي، ابن خطيب الريّ، إمام المتكلمين. ولد سنة ٥٤٣، واشتغل على والده وغيره، وانتشر اسمه وبعد صيته، وقصد من الأرض لطلب العلم. وكانت له يد طُولى في الوعظ باللسان العربي والفارسي. اشتهرت مصنفاته في الآفاق توفي بهَراة سنة ٦٠٦، رحمه الله تعالى. انظر «طبقات الشافعية الكبرى»: ٨/ ٨١-٩٦.

السبعون عند العرب غاية مُستقصاة؛ لأنه عبارة عن جمع السبعة عشر مرات، والسبعة عدد شريف؛ لأن عدد السماوات والأرض والبحار والأقاليم والنجوم والأعضاء هو هذا العدد»...

- قد ورد العدد سبعة في آيات كثيرة من القرآن الكريم العظيم، وفي مواضع عديدة من سنة سيد المرسلين ﷺ، مما جعل بعض العلماء والمشايخ يتتبعون هذا الرقم ودلالاته وإشاراته في النصوص الشرعية وكلام متقدمي العلماء، وقد ذكروا شيئًا كثيرًا في هذا الباب لا أجد مناسبةً لإيراده ها هنا، فهو كثير لا يخلو بعضه من تكلف في الاستنباط، وبعضه الآخر له وجه معتبر في الفهم ودلالات عجيبة في الاستقراء واستخراج اللطائف منه.

ويكفي للإشارة إلى هذا قول ابن رشد الحفيد[1] لما بحث مسألة غسل نجاسة الكلب سبعًا إذا ولغ في الإناء:

---

(١) هو ابن رشد الحفيد، العلامة، فيلسوف الوقت، أبو الوليد محمد بن أبي القاسم أحمد ابن محمد القرطبي ولد سنة عشرين وخمسمائة، وبرع في الفقه، ودرس الطب، ثم أقبل على علوم الأوائل وبلاياهم حتى صار يُضرب به المثلُ في ذلك. كان متواضعًا، صاحب همة ما ترك الاشتغال إلا ليلتين: ليلة موت أبيه وليلة عرسه. ولي قضاء قرطبة فحمدت سيرته ثم رفعت عنه أقوال ردية إلى سلطان مراكش فحبسه بداره حتى مات سنة ٥٩٥هـ، انظر «سير أعلام النبلاء: ٢١/٣٠٧-٣١٠».

«فإن هذا العدد قد استعمل في الشرع في مواضعَ كثيرةٍ في العلاج والمداواة من الإمراض»[١]

وأيضًا قول الإمام ابن حجر [٢] في الحديث نفسه:

«الشارع اعتبر السبع في مواضعَ منه كقوله: «صبوا عليّ من سبع قرب» وقوله: «من تصبح بسبع تمرات عجوة»[٣].

وقال صاحب المنتقى[٤] في شرحه للموطأ:

«قد خص النبي ﷺ هذا العدد في غير ما موضع».

والسؤال بعد كل هذا الذي أوردته:

هل يصلح العدد سبعة ومضاعفاته من سبعين وسبعمائة ليكون أصلًا يقاس عليه الأمور المرادُ قياسُها؟

وهل لاعتبار الشارع هذا العدد في عدد من الأحاديث النبوية الشريفة دلالة مُعِينة لهذا البحث؟

---

(١) «بداية المجتهد»: ١/ ٢٩.

(٢) أحمد بن علي بن محمد، الأستاذ، إمام الأئمة، أبو الفضل الكناني العسقلاني المصري، ثم القاهري الشافعي، ويعرف بابن حجر، وهو لقب لبعض آبائه، ولد سنة ٧٧٣هـ بمصر العتيقة، حفظ بعض المنظومات، وأخذ على كثير من المشايخ، وجدَّ في الفنون حتى بلغ الغاية، وأقبل على الحديث بكليته، وارتحل في طلبه، وولي عدة وظائف في الحسبة والإمام والقضاء، وله المصنفات النافعة المشهورة، توفي في القاهرة سنة ٨٥٢هـ، رحمه الله تعالى. انظر: «الضوء اللامع»: ٢/ ٣٦.

(٣) «فتح الباري».

(٤) هو أبو الوليد الباجي رحمه الله تعالى.

أرى - والله تعالى أعلم - أن هذا العدد هو مقياس محدد منضبط فيما ذُكر من أجله في تلك الأحاديث، وربما يصلح أن يكون مقياسًا في الأمور القريبة من المذكورة في تلك الأحاديث، لكن في غير أبواب التعبد حتى لا يصبح بدعة، ومثالًا على ذلك أن يستفيد امرؤ ما أو هيئة ما من السنوات السبع الواردة في قصة يوسف -عليه الصلاة والسلام- في تدبير شأن الغذاء لأمة أو شعب جاعلًا العددَ الوارد في قصة يوسف، عليه الصلاة والسلام، وهو سبع سنوات مقياسًا يعتمد عليه في عمله هذا[1].

وهنالك لأصحاب النظر الفاحص إمكانية للاستفادة من هذا العدد ومضاعفاته، وربما ينكشف لي أو لغيري شيء منه مستقبلًا بإذن الله، والله أعلم.

ب- العمل بالمقاييس قد يُختلف فيه:

ولما كان مبنى استلال تلك المقاييس قائمًا على الاجتهاد والنظر المحض؛ فكذلك الشأن في إنزالها على العمل الدعوي والثقافي سيكون قائمًا على الاجتهاد والنظر الذي قد تُسعفه التجارب العامة والخبرة السابقة، وما كان هذا شأنه فسيكون فيه اختلاف عند الناظرين والمقومين والمستفيدين، فلا يسارعن امرؤ في التثريب واللوم إذا رأى

---

(١) قد ينازَع في هذا باعتبار أن السنوات السبع لعلاج أمر المجاعة في مصر إنما فهمت من رؤية إلهية وليست عملاً اجتهاديًا، لكنني أقول: إن نجاح التجربة يمكن أن يقاس عليه بصورة أو بأخرى، والله أعلم.

بعض تلك المقاييس بمنظار مختلف عما رأيته.

ولأجل أن أجعل هذه المقاييسَ مقبولةً إلى حد كبير -في هذا الجانب والذي قبله- فإني قد حرصت على عدم التكلف في استنباطها، ولا الغلو في تقديرها، بل أتوسط في شأنها توسطًا يجعلها أقرب إلى القبول والاعتداد بها، إن شاء الله تعالى.

جـ - المرونة في العمل بالمقاييس:

فما كان منها صالحًا لفئة قد لا يكون صالحًا لأخرى، وما كان منها سائغًا في مدة فقد لا يكون كذلك في مدة أخرى، والذي يقوم على العمل بهذه المقاييس قد يستطيع التقدير الحسن لهذا الأمر، وليست كل المقاييس كذلك؛ فبعضها قد يكون صالحًا للعمل به بدون هذا التفاوت.

د- اطّراد أكثر تلك المقاييس متغير:

الشأن في المقاييس العامة اطّرادها، بمعنى أنها كلما قيس بها جاءت بالنتائج نفسها، وإن صح هذا في كثير من الحالات فإن بعض الحالات الأخرى لا يطرد فيها المقياس؛ وذلك لصعوبة هذا الاطراد ومنافاته لسنن الله - تعالى - مما له صلة بالبشر وأعمالهم، فالشخص نفسه تختلف حالته من يوم إلى آخر تبعًا لانشراحه أو ضيقه، ولسروره أو حزنه، ولإقدامه أو إحجامه... إلخ.

وأيضًا فإن قياس الأمور المعنوية لا يخضع لقانون ثابت ولا نظام مطرد، إنما الشأن فيها التذبذب والاختلاف، لتعلقها بالبشر الذين لا

يكادون يستقيمون على حال واحد.

لكن ينبغي أن يكون في المقياس -حتى يكون صالحًا- حد أدنى من الاطراد يُقبل معه ولا يرد، وهذا ما حاولته، ولا ينافي هذا أن يكون هناك شيء من التفاوت في النتائج حال الأخذ بتلك المقاييس؛ فإن التساوي - ها هنا متعذر- فإنك إن وضعت للموز الوزن، وللقمح المكيال صح ما تزن به أو تكيل في كل مرة، لكنك كيف ستضع للعواطف وللأمور المعنوية مقياسًا يُخرج نتائج متساوية في كل مرة؟ فهذا أمر متعذر لأنه لا ينضبط، وحسبي أني قد جئت بمقياس أرى أنه سيُخرج نتائج متقاربة في كل مرة يُقاس به العمل، والله أعلم.

- وبعض تلك المقاييس التي وضعتها -كمقاييس العبا .ات- يمكن وصفها بالاطراد إلى حد كبير، بل بعضها يطرد مطلقًا، كما سيأتي، إن شاء الله تعالى.

٣) الأعداد هي المعتبرة في غالب المقاييس:

إن المقاييس معتمدة في غالبها على الأعداد، وقد يعتمد بعضها على النسب كالنصف والعشر وغير ذلك، وفي مثل هذا قال النبي ﷺ:

«إن العبد ليصلي الصلاة ما يكتب له منها إلا عشرها، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها»[١].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في سننه، وحكم الشيخ شعيب بصحة السند.

أما الأعداد فهي الأهم الأغلب في المقاييس، ومن ذلك حديث ﷺ:

«خير الرفقاء أربعة، وخير السرايا أربعمائة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولن يُغلب اثنا عشر ألفًا من قلة»[١].

وسيأتي في ثنايا الرسالة مزيد إيراد لمقاييسَ معتمدة على الأعداد والنسب، إن شاء الله تعالى.

٤) المقاييس لا تكفي منفردة في الحكم على الأشخاص وفي تقدير الأشياء:

إن هذا الكتاب يورد المقاييس، ويبين أهمية اعتبارها في الحكم على الأشخاص وفي تقدير الأشياء والأمور، لكنها في بعض الأحيان لا تصلح منفردة، فمن ذلك الحديث الذي أوردته آنفًا: «لن يُغلب اثنا عشر ألفًا من قلة»، ففي هذا الحديث: أورد النبي ﷺ مقياسًا يُرجع إليه ويقاس العدد عليه وهو اثنا عشر ألفًا، لكنه ذكر مع ذلك المقياس أمرًا آخر مهمًا وهو قوله: «من قلة»، وهذا يعني أنهم يمكن أن يُهزموا ولو بلغوا اثني عشر ألفًا، والهزيمة قد تقع - على سبيل المثال - لقلة الإخلاص في بعضهم، أو لعدم الأخذ الجاد بقوله تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، أو لوجود بعض مرتكبي الكبائر في

---

(١) أخرج الحديث الإمام أحمد وجماعة آخرون، وصححه جماعة من الأئمة المتقدمين والمتأخرين، وضعفه بعضهم، وبعضهم صححه مرسلاً.

الجيش المصرين عليها إلى آخر ما يمكن أن يعوق الاثني عشر ألفًا من تحقيق النصر، وقد كتب الفاروق الملهم المحدث إلى سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنهما - وهو في العراق:

«إنما يغلب المسلمون عدوهم بتقواهم لله ومعصية عدوهم له، فإذا استوينا نحن وهم في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة».

وقد هُزم المسلمون مرارًا في تاريخهم وقد بلغوا اثني عشر ألفًا بل أكثر بكثير، وانتصروا وقد بلغوا اثني عشر ألفًا وأقل بكثير، والله أعلم.

وجاء في «عون المعبود» [1] بيان جيد وتوضيح لمعنى هذا الحديث، وصلته بأمر المقاييس، فقد قال:

«**والرفقاء**»: جمع رفيق: ما يستحب من الرفقاء والصحابة في السفر.

«**خير الصحابة**»: بالفتح جمع صاحب، ولم يجمع فاعل على فعالة غير هذا...

«**أربعة**»: قال الغزالي [2]:

المسافر لا يخلو عن رَحْل يحتاج إلى حفظه، وعن حاجة يحتاج إلى التردد فيها، ولو كانوا ثلاثة لكان المتردد في الحاجة واحدًا فيتردد في

---

(١) شرح سنن أبي داود للشمس آبادي : حديث رقم ٢٦١١

(٢) محمد بن محمد بن محمد الغزالي، توفي بطوس - إيران اليوم - سنة ٥٠٥ رحمه الله تعالى. انظر سيرته مفصلة في سير اعلام النبلاء: ٣٢٢/١٩ وما بعدها.

السفر بلا رفيق، فلا يخلو عن ضيق القلب لفقد الأنيس، ولو تردد اثنان كان الحافظ للرحل وحده فلا يخلو عن الحذر وعن ضيق القلب فإذًا ما دون الأربعة لا يفي بالمقصود، والخامس زيادة بعد الحاجة.

وفيه دليل على أن خير الصحابة أربعة أنفار، وظاهره أن ما دون الأربعة من الصحابة موجود فيها أصل الخير من غير فرق بين السفر والحضر، ولكن حديث عمرو بن شعيب المتقدم[١] ظاهره أن ما دون الثلاثة عصاة؛ لأن معنى قوله «شيطان» أي عاصٍ، وقال الطبري[٢]:

هذا الزجر زجر أدب وإرشاد لما يُخشى على الواحد من الوحشة والوحدة وليس بحرام، والحق أن الناس يتباينون في ذلك، فيحتمل أن يكون الزجر عنه لحسم المادة فلا يتناول ما إذا وقعت الحاجة لذلك كإرسال الجاسوس والطليعة.

«وخير السرايا»... وهي الطائفة من الجيش يبلغ أقصاها أربعمائة تُبعث إلى العدو، والجمع: السرايا، سُموا بذلك لأنهم كانوا خلاصة العسكر وخيارهم، من الشيء السري النفيس؛ سموا بذلك لأنهم ينفذون سرًا وخفية.

---

(١) أي «المسافر شيطان، والمسافران شيطانان، والثلاثة ركب».

(٢) أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد، الإمام العلم المجتهد. ولد سنة ٢٢٤ بآمُل طَبَرِستان. وكان من أفراد الدهر علمًا وذكاءً وكثرة تصانيف. وكان من كبار أئمة الاجتهاد. أكثر الترحال في طلب العلم، ثم استقر ببغداد وتوفي بها سنة ٣١٠: انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٤/٢٦٧ - ٢٨٢.

فعلى هذا خير السرايا من ثلاثمائة إلى الأربعمائة، ومن أربعمائة إلى خمسمائة.

«ولن يُغلب»: بصيغة المجهول أي لن يصير مغلوبًا.

«من قلة»: معناه أنهم لو صاروا مغلوبين لم يكن للقلة بل لأمر آخر كالعُجْب بكثرة العَدد والعُدد وغيره.

قال العلقمي[1]:

أي إذا بلغ الجيش اثني عشر ألفًا لن يُغلب من جهة قلة العدد.

قال ابن رسلان[2]:

زاد أبو يعلى الموصلي [3]: إذا صبروا واتقوا...

بل يكون الغلب من سبب آخر؛ كالعجب بكثرة العدد، وبما زين

---

(١) محمد بن عبدالرحمن بن علي، شمس الدين. فقيه شافعي، عارف بالحديث. من بيوت العلم في القاهرة. كانت من تلاميذ الجلال السيوطي، ومن المدرسين بالأزهر. له عدة مصنفات. توفي سنة ٩٦٩ رحمه الله تعالى. أنظر «الأعلام»: ١٩٦/٦.

(٢) شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حسين بن علي، المقدسي الرملي الشافعي. ولد سنة ٧٧٣ في الرملة في فلسطين ونشأ بها. لازم الاشتغال بالعلم حتى برز، وله عدة كتب مهمة توفي سنة ٨٤٤، رحمه الله تعالى. انظر ترجمته في «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» للإمام السخاوي ٢٧٨/١.

(٣) المعافى بن عمران بن نفيل الأزدي الموصلي الحافظ، قَلّ أن ترى العيون مثله، ويلقب بياقوتة العلماء. ولد سنة نَيّف وعشرين ومائة. توفي أواخر القرن الثاني رحمه الله تعالى. انظر «نزهة الفضلاء»: ٥٣٢/٣.

لهم الشيطان من أنفسهم من قدرتهم على الحرب وشجاعتهم وقوتهم ونحو ذلك.

ألا ترى إلى وقعة حنين، فإن المسلمين كان عدتهم فيها اثني عشر ألفًا أو قريبًا منها فأعجبهم كثرتهم واعتمدوا عليها وقالوا: لن نُغلب اليوم عن قلة، فغُلبوا عند ذلك.

واستُدل بهذا الحديث على أن عدد المسلمين إذا بلغ اثني عشر ألفًا أنه يحرم الانصراف وإن زاد الكفار على مثليهم، قال القرطبي[1]:

وهو مذهب جمهور العلماء؛ لأنهم جعلوا هذا مخصصًا للآية الكريمة...»

وإنما سقت أقوال أولئك الأئمة لأبين أنهم يرون أن ما ورد في النصوص من الأرقام أو النسب يصلح أن يكون نصًّا يقيسون إليه، ويعتبرونه في القواعد والضوابط التي يأتون بها، وأنه ليس فقط للاستئناس والاسترشاد، وإن كان الاستئناس والاسترشاد بتلك النصوص سائغًا ومقبولًا، وهو الذي بنيت عليه هذه الرسالة.

- وبهذا يُعرف أن المقاييس لا تكفي منفردة بل إنها يستأنس بها، ويعتمد عليها في أحايين عديدةٍ لضبط بعض الأمور التي لا غنى عنها

---

(١) هو الشيخ الإمام محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري الخزرجي القرطبي، إمام متفنن متبحر في العلم. له تصانيف تدل على كثرة اطلاعه ووفور فضله، توفي سنة ٦٧١ بصعيد مصر التي انتقل إليها من الأندلس، رحمه الله تعالى. انظر ترجمته في «الوافي بالوفيات»: ٢/١٢٢، ١٢٣.

فيها، كما سيأتي ظاهرًا في صلب البحث إن شاء الله تعالى، وإنما ينبغي أن يضاف عليها - في بعض الأحيان - بعض الأمور كالإخلاص وغيره.

هذا وقد ذكر الحافظ ابن كثير [1] رحمه الله تعالى عقب إيراده تضاعيفَ الإنفاق في سبيل الله - سبحانه وتعالى - المذكورة في وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١] قال: «أي بحسب إخلاصه في عمله»[2].

...

---

(١) إسماعيل بن عمر بن كثير البصروي: عماد الدين، الحافظ الإمام، ولد سنة سبعمائة ونشأ بدمشق واشتغل بالحديث، وله عدة مصنفات سارت في البلاد، وكان كثير الاستحضار، حسن المفاكهة، توفي سنة ٧٤٤، «انظر الدرر الكامنة»: ١/٣٩٩-٤٠٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم.



وهذا - عندي - أيسر المقاييس وأسهلها من حيث التقعيد، وبيان ذلك كالتالي:

إن المرء إما أن يحافظ على فرائض العبادات وإما أن يفرط فيها، فإن فَرّط وقَصّر ولم يأتِ بمفروضات العبادات فهذا هو الظالم لنفسه، وليس هو ممن أعنيهم في بحثي هذا.

فإن حافظ على الفرائض واكتفى بها نال درجة القبول، أي بمقاييس العصر حاز الخمسين بالمائة: درجة النجاح، ويستأنس في هذا المقام بحديث الأعرابي، فقد روى طلحة بن عبيدالله ﷺ قال:

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس نسمع دوي صوته ولا نفقه ما يقول، حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال ﷺ: «خمس صلوات في اليوم والليلة».

فقال: هل عليّ غيرها؟

قال: «لا، إلا أن تَطَوّع». فأخبره ﷺ بشرائع الإسلام.

قال: هل عليّ غيرها؟

قال: «لا، إلا أن تطوع».

فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص.

فقال رسول الله ﷺ: «أفلح إن صدق»[١].

وهذا الفلاح المبين في الحديث النبويّ الشريف في حق ذلك الأعرابي هو ما أسميه بدرجة القبول أو الحد الأدنى - أي ٥٠٪ -، وإن لم يكن في حق غيره كذلك، فقد بيَّن الفقهاء أن تارك السنن مطلقًا في عدالته شيء، فقد قال القرطبي - رحمه الله تعالى -:

«من داوم على ترك السنن كان نقصًا في دينه، فإن كان تركها رغبةً عنها وتهاونًا بها كان ذلك فسقًا... وقد كان صدر الصحابة ومن تبعهم يواظبون على السنن مواظبتهم على الفرائض، ولا يفرقون بينهما في اغتنام ثوابهما»[٢].

بل ذهب القرطبي إلى أنه لا خلاف بين المسلمين أن من ترك السنن تهاونًا بها فسق[٣]!!.

---

(١) أخرجه الإمام الإمام البخاري في كتاب الإيمان: باب الزكاة في الإسلام.

(٢) فتح الباري: حديث ١٣٣٣.

(٣) «تفسير القرطبي»: ١٤/٨.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية [١]:

«من داوم على ترك السنن... سقطت عدالته عندهم ولم تقبل شهادته.. فلا يُمَكّن من حكم ولا شهادة ولا فتيا مع إصراره على ترك السنن الراتبة» [٢].

وقال في موضع آخر: «من أصر على تركها دل ذلك على قلة دينه ورُدت شهادته في مذهب أحمد والشافعي وغيرهما» [٣].

وذهب بعض الفقهاء – ومذهبه مرجوح – أن تاركها مطلقًا يأثم وقيل الإثم اليسير، مع اللوم [٤].

وعلى هذا فيقال: إن المحافظ على الفرائض فقط ينال ٥٠٪ مع شيء من العتب واللوم، إما الإثم فالراجح أنه لا إثم إن شاء الله تعالى.

- وإن حافظ على السنن بأن فعل التالي:

في باب الصلاة:

أتى بالاثنتي عشرة ركعة كل يوم الواردة في حديث النبي ﷺ:

---

(١) أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام، يُدعى لجدته تيميّة، أحد أئمة المسلمين المجتهدين. توفي –رحمه الله– سنة ٧٢٨ بدمشق مسجونًا بعد أن خلف علمًا كثيرًا ومصنفات عديدة. انظر ترجمته في «الدرر الكامنة»: ١/ ١٥٤–١٧٠.

(٢) مجموع الفتاوى: ٢٣/ ٢٥٣.

(٣) المصدر السابق.

(٤) «فتح القدير» لابن الهمام: ١/ ٤٣٩.

«ما من عبد مسلم يصلي لله كل يوم ثنتي عشرة ركعة تطوعًا غير فريضة، إلا بنى الله له بيتًا في الجنة»(١).

- وفي زيادة للترمذي:

«أربعًا قبل الظهر وركعتين بعدها، وركعتين بعد المغرب، وركعتين بعد العشاء، وركعتين قبل صلاة الفجر»(٢).

وإن حافظ على الوتر بركعة؛ كما هو جائز عند الجمهور، أو بثلاث وهو الحد الأدنى عند الأحناف.

وإن صلى الضحى ركعتين، إن فعل ذلك كله فقد حاز الحد الأدنى من الجودة في العبادات وهو بلغة العصر ٧٠٪.

فإن ارتقى فوق ذلك بأن صلى الوتر إحدى عشرة ركعة، وأتى ببعض السنن غير المؤكدة كصلاة أربع ركعات قبل العصر، وأربع ركعات بعد الظهر فقد ارتقى إلى ٨٠٪.

فإن أتى بالصلوات تلك على وجهها من إحسان وضوئها، وحسن الخشوع فيها، والطمأنينة، والتدبر للآيات على وجهها فقد ارتقى إلى شبه الكمال وهو ٩٠٪ بلغة العصر.

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب: صلاة المسافرين وقصرها. باب فضل السنن الراتبة قبل الفرائض وبعدهن وبيان عددهن.

(٢) أخرجه الإمام الترمذي في سننه: كتاب الصلاة: باب ما جاء في الأربع قبل الظهر.

ثم إنه إن حافظ على الصلوات المفروضات في جماعة، وحرص على إدراك التكبيرة الأولى، وبقي حريصًا على ذلك طوال عمره – بالقدر الذي يستطيعه وما وُفق له – فإنه يجوز بذلك نسبة ٩٠٪ ويقترب من الكمال المطلق – ١٠٠٪ – بحسب كل ما سبق إن شاء الله.

ويُستأنس بحديث في هذا السياق، يوضح فيه النبي ﷺ أهمية صلاة الجماعة، وأهمية إدراك التكبيرة الأولى، فقد قال ﷺ في الحديث الذي رواه أنس بن مالك ﷺ:

«من صلى لله أربعين يومًا جماعة يُدرك التكبيرة الأولى كُتبت له براءتان: براءة من النار، وبراءة من النفاق»[1].

ففي هذا الحديث وضع النبي ﷺ مقياسًا جليلًا يرجع إليه من شاء أن يعرف فضل الجماعة وفضل إدراك التكبيرة الأولى.

ملحظان:

١- ليست هذه النسب ثابتة لأحد من الناس، لكن من كان أغلب دهره هكذا أُعطيت له هذه النسبة بحكم الأغلب والأكثر من أيامه.

(١) أخرجه الإمام الترمذي في سننه، وحسنه الشيخ الألباني، وضعفه جماعة من المتقدمين، ووثق الإمام الهيثمي رجاله، انظر: تلخيص الحبير: ٢/ ٢٧، وانظر: تخريج الحافظ العراقي لأحاديث الإحياء: ١/ ٢٠٣.

٢- إن هـذه النسـب تتفـاوت تفاوتًـا كبـيرًا بقـدر الخشـوع والاطمئنان الحاصلين في أداء تلك الصلوات، لكن ما ذكرته يعد مقياسًا عامًّا، وكُلٌّ يستطيع أن يلتصق بالنسبة التي هي أليق بحاله وألصق بشأنه، هذا وقد قال عبدالله بن عمر رضي الله عنه: رأيت عمار بن ياسر دخل المسجد فأخف الصلاة، فلما خرج قمت إليه فقلت: يا أبا اليقظان لقد خففت.

قال: فهل رأيتني انتقصت من حدودها شيئًا.

قلت: لا.

- قال: فإني بادرت بها سهوة الشيطان، سمعت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول: «**إن العبد ليصلى الصلاة ما يكتب له منها إلا عشرها، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها**»(١).

أما الصيام:

فإن حافظ المرء على صيام رمضان فقد حاز درجة القبول أي الخمسين بالمائة.

فإن أضاف إلى صيام الفرض صيام ثلاثة أيام من كل شهر، الواردة في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**أوصاني خليلى ﷺ بثلاث: صيام ثلاثة أيام**

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في سننه، وحكم الشيخ شعيب بصحة السند.

من كل شهر وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام»(١).

فإن حافظ على تلك الأيام الثلاثة ارتقى إلى ٧٠٪، وهو الحد الأدنى من الجودة.

وإن حافظ على صيام عاشوراء ويوم معه قبله أو بعده، ويوم عرفة – وصام ستة أيام من شوال فقد حاز على ٨٠٪، إن شاء الله تعالى.

فإن صام معها الاثنين والخميس وحافظ عليهما – أو كان صيامهما أكثر من إفطارهما – فقد ارتقى إلى ٩٠٪ أو شبه الكمال، إن شاء الله تعالى.

- هذان مثلان على مقاييسَ لعبادتين هما الصلاة والصيام، وهما أكثر ما يتلبسان المرءَ في هذه الحياة، وقد اجتهدت في مقياسهما على ما رأيتم، والله أعلم.

أما الإنفاق في سبيل الله تعالى:

فإن أدى المرء زكاته حاز على درجة القبول، وهي خمسون بالمائة كما سلف.

وإن أنفق من ماله زيادة على ذلك فبقدره، فإن أنفق كل الزائد عن حاجته، فقد حاز شبه الكمال ٩٠٪.

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب الصوم، باب صيام أيام البيض ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة.

وقد يرتقي إلى الكمال - وهو مائة بالمائة - إذا أنفق في ساعة العسرة للمسلمين أو ساعة عسرته هو، كما قال ﷺ:

«سبق درهم مائة ألف درهم».

قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله ﷺ؟

قال: «رجل له درهمان فأخذ أحدهما فتصدق به، ورجل له مال كثير فأخذ من عُرض ماله مائة ألف فتصدق بها» [(١)].

فدل هذا الحديث على أن نفقة المقلّ أعظم من نفقة المكثر.

وقال العلامة السندي [(٢)] في شرح سنن النسائي:

«ظاهر الأحاديث أن الأجر على قدر حال المعطِي لا على قدر المعطَى...».

والإخلاص في الإنفاق قد يرتقي بصاحبه إلى الكمال - أي ١٠٠٪ - بقدر إخلاصه في نفقته.

وإن أنفق ثلث ماله فهو قد حاز ما بين الثمانين والتسعين؛ وذلك لأن هذه النسبة ممدوحة في حديث المصطفى الأعظم ﷺ، كما جاء عن

---

(١) أخرجه الإمام النسائي وغيره وحسنه الألباني.

(٢) هو محمد بن عبدالهادي التتوي، أبو الحسن، نور الدين السندي. فقيه حنفي، عالم بالحديث والتفسير والعربية. أصله من السند ومولده فيها، وتوطن بالمدينة إلى أن توفي سنة ١١٣٨، رحمه الله تعالى. له عدة كتب أشهرها حواشيه على بعض كتب السنة، انظر «الأعلام»: ٦/ ٢٥٣.

أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

«بينما رجل بفلاة من الأرض فسمع صوتًا في سحابة: اسقِ حديقة فلان، فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حَرّة، فإذا شَرْجة من تلك الشراج(١) قد استوعبت ذلك الماء كله، فتتبع الماء فإذا رجل قائم في حديقته يحول الماء بمسحاته فقال له: ياعبدالله، ما اسمك؟

قال: فلان، للاسم الذي سمع في السحابة.

فقال له: ياعبدالله: لم تسألني عن اسمي.

فقال: إني سمعت صوتًا في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسقِ حديقة فلان باسمك، فما تصنع فيها؟

قال: أمّا إذ قلت هذا فإني أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثه، وأرد فيها ثلثه»(٢).

وإنما قلت قد حاز بين الثمانين إلى التسعين لتعلق ذلك بالإخلاص في النفقة، وبقَدْر حاجة المسلمين، كما مرّ آنفًا.

- فإن أنفق المرء عشرة بالمائة من ماله فقد حاز ما بين السبعين إلى الثمانين بالمائة.

---

(١) الشَّرْجة: هي مسيل الماء في الحرار، والحرة: أرض ذات حجارة سود: «شرح النووي لصحيح مسلم»: حديث ٢٩٨٤. وبيان ذلك أن الحرة بها صخور، وبين الصخور ممرات دقيقة، يسيل فيها الماء، فهذه هي الشِّراج، و الله أعلم.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب الزهد والرقائق: باب الصدقة في المسكين.

- وإن أنفق المرء أي مال زائد على مقدار زكاته بما هو أقل من ١٠٪ من دخله فقد حاز ما بين الخمسين والسبعين بالمائة، بمقدار ما أنفق من ماله من تلك النسبة المذكورة، وبقدر إخلاصه في نفقته، وبقدر حاجة المسلمين، كما مَرّ آنفًا، والله أعلم.

ومما يظهر فيه اختلاف مقاييس الإنفاق قوله تعالى:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦] ففي هذه الآية بيان ثواب النفقة وأنها تتضاعف من ثواب مضاعف مرة واحدة إلى عشر مرات إلى سبعمائة ضعف، وقد قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى - في هذه الآية:

«هذا مثل ضربه الله -تعالى- لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف.

وقد وردت السنة بتضعيف الحسنة إلى سبعمائة ضعف...

وهذا المثل أبلغ في النفوس، من ذكر عدد السبعمائة، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله - عز وجل - لأصحابها كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة، وقد وردت السنة بتضعيف الحسنة إلى سبعمائة ضعف، قال الإمام أحمد:

حدثنا زياد بن الربيع أبو خِدَاش، حدثنا واصل مولى ابن عيينة،

عن بشار بن أبي سيف الجرمي، عن عياض بن غطيف قال: دخلنا على أبي عبيدة بن الجراح نعوده من شكوى أصابه - وامرأته تُحَيْفَة قاعدة عند رأسه - قلنا: كيف بات أبو عبيدة؟

قالت: والله لقد بات بأجر.

قال أبو عبيدة: ما بتُّ بأجر؛ وكان مقبلًا بوجهه على الحائط، فأقبل على القوم بوجهه، وقال: ألا تسألوني عما قلت؟

قالوا: ما أعجبنا ما قلتَ فنسألك عنه.

قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«من أنفق نفقة فاضلة في سبيل الله فبسبعمائة، ومن أنفق على نفسه وأهله، أو عاد مريضًا أو مازَ[1] أذى، فالحسنة بعشر أمثالها، والصوم جُنَّةٌ ما لم يخرقها، ومن ابتلاه الله - عز وجل - ببلاء في جسده فهو له حِطّة[2]»...

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن سليمان، سمعت أبا عمرو الشيباني، عن ابن مسعود: أن رجلاً تصدق بناقة مخطومة في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «لتأتين يوم القيامة بسبعمائة ناقة مخطومة»

---

(١) ماز بمعنى فرّق، أي أزال.

(٢) حِطّة أي تكفير لسيئاته وغفران لها.

ورواه مسلم والنسائي، من حديث سليمان بن مِهْران، عن الأعمش، به؛ ولفظ مسلم: جاء رجل بناقة مخطومة، فقال: يا رسول الله؛ هذه في سبيل الله.

فقال: «لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة».

حديث آخر: قال أحمد: حدثنا عمرو بن مُجَمِّع أبو المنذر الكندي، أخبرنا إبراهيم الهجري، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن الله ﷻ، جعل حسنة ابن آدم بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلا الصوم، والصوم لي وأنا أجزي به، وللصائم فرحتان: فرحة عند إفطاره وفرحة يوم القيامة، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا وَكِيع، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«كل عمل ابن آدم يضاعف؛ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى ما شاء الله، يقول الله: إلا الصوم، فإنه لي وأنا أجزي به، يدع طعامه وشهوته من أجلي، وللصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، ولخلوف فِيه أطيب عند الله من ريح المسك.

الصوم جنة، الصوم جنة». وكذا رواه مسلم، عن أبي بكر بن أبي شيبة، وأبي سعيد الأشج، كلاهما عن وكيع به...

وقد أورد الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى - بعض الأحاديث العجيبة المنبئة عن مضاعفة النفقة إلى مليوني ضعف!! وهذا تضعيف مدهش، وهو لا شك من فضل الله العظيم، وخيره العميم، وقد أورد الحافظ بسنده - عند تفسيره قوله تعالى: ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥] حديثًا رواه الإمام أحمد عن أبي عثمان النهدي، قال: لم يكن أحد أكثر مجالسة لأبي هريرة مني فقدم قبلي حاجًا قال: وقدمت بعده فإذا أهل البصرة يَأْثِرون عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يضاعف الحسنة ألف ألف حسنة»[1] فقلت: ويحكم: والله ما كان أحد أكثر مجالسة لأبي هريرة مني، فما سمعت هذا الحديث. قال: فتحملت أريد أن ألحقه فوجدته قد انطلق حاجًّا فانطلقت إلى الحج أن ألقاه في هذا الحديث، فلقيته لهذا فقلت:

يا أبا هريرة ما حديث سمعت أهل البصرة يأثرون عنك؟ قال: ما هو؟

قلت: زعموا أنك تقول: إن الله يضاعف الحسنة ألف ألف حسنة. قال: يا أبا عثمان وما تعجب من ذا والله يقول: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ

---

(١) أي مليون حسنة.

قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥] ويقول: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨] والذي نفسي بيده لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يضاعف الحسنة ألفي ألف حسنة»(١).

وفي معنى هذا الحديث ما رواه الترمذي وغيره من طريق عمرو بن دينار عن سالم عن عبد الله بن عمر بن الخطاب أن رسول ﷺ قال: «من دخل سوقًا من الأسواق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة» الحديث(٢)...

وعن نافع عن ابن عمر قال:

لما نزلت ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ [البقرة: ٢٦١] إلى آخرها فقال رسول الله ﷺ: «رب زد أمتي» فنزلت: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ قال: رب زد أمتي. فنزل: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ

---

(١) ورواه أحمد في المسند (٥/ ٥٢١) من طريق علي بن زيد، عن أبي عثمان به. وألفا ألف حسنة: أي مليونان.

(٢) سنن الترمذي برقم (٣٤٢٩) وقال: «عمرو بن دينار هذا هو شيخ بصري، وقد تكلم فيه بعض أصحاب الحديث من غير هذا الوجه»، وقد حسن الحديث جماعة من الأئمة.

بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1][الزمر: ١٠].

- ومن تلك الآيات الشريفة والأحاديث والآثار المنيفة يتبين بجلاء أن مقاييس الإنفاق لا تخضع لنسب جامدة، إنما هي تتفاوت تفاوتًا عظيمًا بحسب حال المنفق وحال المنفق عليه، وحاجة المسلمين إلى المال، إلى آخر العوامل التي ترتقي بالإنفاق إلى درجات جليلة عجيبة، لكني إنما أردت وضع مقاييس أولية حاكمة، أما قضية الإخلاص في النفقة فالمنفق يعلم من نفسه قدر إخلاصه في نفقته وهل أراد بها وجه الله - تعالى - أوْ لا، والله الموفق.

الوصيــــة:

قد وضعت الوصية في مقياس العمل المؤثر؛ لأن هناك من الموسرين من يترك الملايين المُمَلينة ولا يوصي فيها بشيء فتذهب كلها للورثة، بينما لو أوصى بالثلث - مثلًا - لاستفاد منها المسلمون استفادة عظيمة، فيكون هذا عملًا مؤثرًا في المجتمع، ولذلك أوردته ها هنا.

فإن وصى المرء بثلث: ماله فقد أجاد، وإن أوصى بالربع فقد أصاب السنة، فأما الثلث فقد جاء فيه حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ وفيه:

يا رسول الله: أوصى بمالي كله؟

(١) انظر تفسير ابن كثير: ١/ ٦٦٢ وما بعدها.

قال: لا.

قلت: فالشطر؟

قال: لا.

قلت: الثلث؟

قال: فالثلث، والثلث كثير، إنك أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس في أيديهم...»[١].

أما الربع فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما:

«لو غَضّ الناس إلى الربع لأن رسول الله ﷺ قال: **الثلث، والثلث كثير أو كبير**»[٢].

وقد أورد الإمام النووي[٣] بين الثلث والربع جمعًا حسنًا فقال:

«قال أصحابنا وغيرهم من العلماء:

إن كانت الورثة أغنياء استُحب أن يوصي بالثلث تبرعًا، وإن كانوا

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب الوصايا: باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس.

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب الوصايا، باب الوصية بالثلث.

(٣) مفتي الأمة، شيخ الإسلام يحيى بن شرف بن مُرّي، محيي الدين أبو زكريا النووي، الحافظ الفقيه الشافعي، الزاهد. ولد سنة ٦٣١ بـ(نوى) إحدى قرى حوران ببلاد الشام، وقدم إلى دمشق واجتهد في طلب العلم والتعبُّد، وألّف مصنفات نافعة جدًا. توفي بـ(نوى) سنة ٦٧٦ رحمه الله تعالى. انظر «الوافي بالوفيات» ٤/ ٢٦٤-٢٦٨.

فقراء استُحب أن ينقص من الثلث».

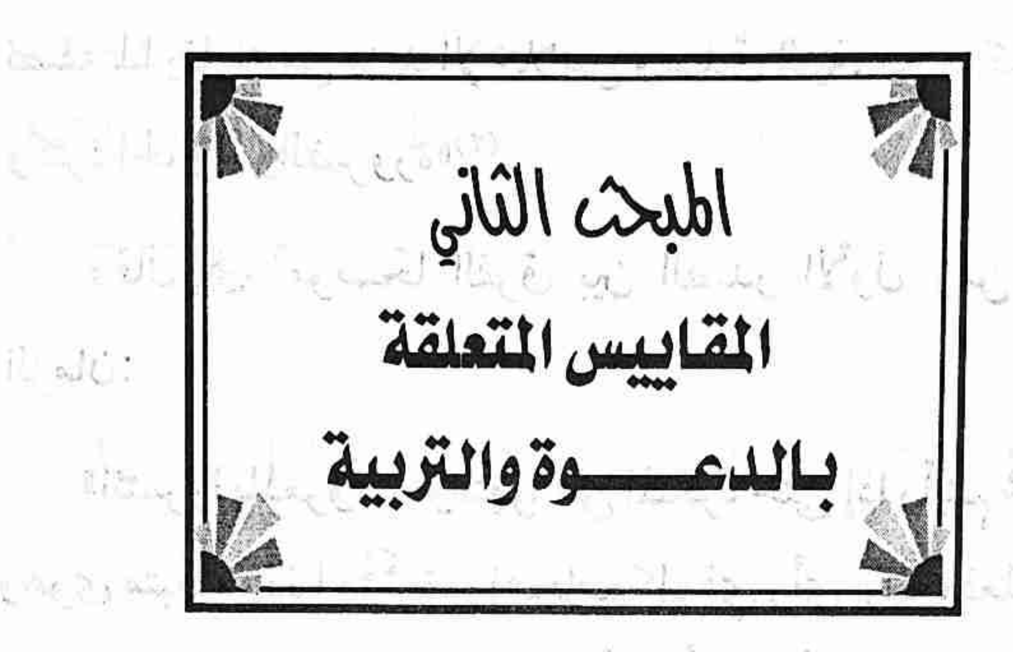
وقال أيضًا - رحمه الله تعالى - في حديث ابن عباس، رضي الله عنهما، الوارد آنفًا: «غَضُّوا أي: نقصوا، وفيه استحباب النقص عن الثلث، وبه قال جمهور العلماء مطلقًا، ومذهبنا أنه إن كانت ورثته أغنياء استُحب الإيصاء بالثلث، وإلا فيستحب النقص منه.

وعن أبي بكر الصديق ﷺ أنه أوصى بالخمس، وعن علي - رضي الله عنه نحوه - وعن ابن عمر وإسحاق بالربع، وقال آخرون بالسدس، وآخرون بدونه، وقال آخرون بالعشر، وروي عن علي وابن عباس وعائشة وغيرهم - رضي الله عنهم - «أنه يستحب لمن له ورثة وماله قليل ترك الوصية»[1].

ويؤخذ من مجموع هذه الأحاديث والأقوال أن المرء إن ترك مالًا جيدًا استحب له أن يوصي بالثلث إذا كان ورثته أغنياء، وبالربع إن كان ورثته فقراء، وإن صنع ذلك نال ١٠٠٪ من مقياس الوصية، والله أعلم.

***

(١) شرح مسلم للنووي.



المبحث الثاني
المقاييس المتعلقة بالدعـــوة والتربية

قد جاء التفاضل بين المسلمين بحسَب أعمالهم وجهدهم في العمل والدعوة والجد والاجتهاد في تحصيل رضى الله - تعالى - فقد قال سبحانه في الفرق بين الصحابة الذين أسلموا قبل الفتح والصحابة الذين أسلموا بعد الفتح:

﴿لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى﴾ [الحديد: ١٠].

وقال النبي ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نَصِيفَه[١]».

«والنصيف بمعنى النصف، والمعنى: لا ينال أحدكم بإنفاق مثل

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب فضائل الصحابة: باب قول النبي ﷺ لو كنت متخذاً خليلاً.

أحد ذهبًا من الأجر والفضل ما ينال أحدهم بإنفاق مُد طعام[١]، أو نصفه لما يقارنه من مزيد الإخلاص وصدق النية، مع ما كانوا من القلة وكثرة الحاجة والضرورة»[٢].

وقال ﷺ موضحًا الفرق بين الصدر الأول ومن سيأتي آخر الزمان:

«ائتمروا بالمعروف، وانتهوا عن المنكر، حتى إذا رأيتم شُحًّا مطاعًا، وهوى متبعًا، ودنيا مؤثَرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بنفسك ودع عنك العوام، فإن من ورائكم أيامًا تُدعى أيام الصبر، الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلًا يعملون مثل عملكم»

وفي زيادة: «قيل: يا رسول الله ﷺ، أجر خمسين رجلًا منا أو منهم؟ قال: بل أجر خمسين رجلًا منكم»[٣].

وفي هذا الحديث ثبوت تفاضل الأعمال وتفاوت المقاييس.

وقال الإمام ابن حجر معلقًا على هذا الحديث:

---

(١) المد: ربع صاع.

(٢) «عون المعبود شرح سنن أبي داود» للشمس آبادي: حديث رقم ٤٦٥٨.

(٣) أخرجه جماعة من الأئمة منهم أبو داود وابن ماجة، والحديث ضعفه جماعة، وحسنه جماعة، منهم ابن القيم رحمه الله تعالى، وصححه الألباني بمجموع طرقه في «السلسلة الصحيحة»: ٤٩٤.

«حديث «للعامل منهم أجر خمسين منكم» لا يدل على أفضلية غير الصحابة على الصحابة؛ لأن مجرد زيادة الأجر لا يستلزم ثبوت الأفضلية المطلقة، وأيضًا فالأجر إنما يقع تفاضله بالنسبة إلى ما يماثله في ذلك العمل، فأما ما فاز به من شاهد النبي ﷺ من زيادة فضيلة المشاهدة فلا يعدله فيها أحد» (١).

ويشبهه حديث آخر رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال:

«إنكم في زمان من ترك منكم عُشر ما أُمر به هلك، ثم يأتي زمان مَن عمل منهم بعشر ما أمر به نجا»

وورد بلفظ آخر: «إنكم في زمان علماؤه كثير، خطباؤه قليل، مَن ترك فيه عُشَيْر ما يعلم هوى أو قال هلك، وسيأتي على الناس زمان يقل علماؤه، ويكثر خطباؤه، مَن تمسك فيه بعُشَير ما يعلم نجا»(٢).

ويؤخذ من هذه الأحاديث مجتمعة أن أمر العمل والدعوة والاجتهاد تتفاوت مقاييسه بتفاوت الزمان، وتفاوت الناس وأحوالهم، وأن ما يقبل من قوم قد لا يُقبل من آخرين، وهذا أمر لا بد من أخذه في الاعتبار عند دعوة الناس والحكم على أعمالهم.

---

(١) «فتح الباري» ٧/٧.
(٢) أخرج الحديث جماعة من المحدثين منهم الترمذي والطبراني، واختُلف فيه تصحيحًا وتضعيفًا.

مقياس الإخلاص:

الإخلاص هو كنز الصالحين الأكبر، ورجاء العاملين، والأمر الذي يتوسلون به إلى رب العالمين، وشأنه عظيم، وهو مراد صعب، ومركب وَعر، وبه يحصل التفاوت بين المنازل، وهو الفيصل في قبول العمل.

وليس بمقدور أحد من البشر أن يقيس إخلاص امرئ ما، إنما هو أمر بين العبد وربه، وسر مكنون في الصدور، لكني ها هنا إنما آتي بدلائل يقيس بها المرء إخلاصه بنفسه، ويراجع بها أمره، ويثوب بها إلى رشده، والحد الأدنى في ذلك هو:

١- ألا يعمل المرء عملًا صالحًا إلا وهو ينوي به إرضاء الله - تعالى - وحده.

٢- ألا يريد به الشهرة والتصدر، واستنطاق الألسن بمدحه، وتحريك الأصابع بالإشارة إليه.

٣- أن يراقب الله - تعالى - في حديثه إذا تحدث، وفي صمته إذا صمت.

٤- أن تستوي علانيته وسره.

فإن اختل أمره في واحدة من تلك الأربع كان لزامًا عليه أن يراجع أمره، وأن يعالج نقصه، فهو على شفا جُرُف هارٍ، وإخلاصه دون الحد

المقبول، ويتراوح بين الصفر وأقلَّ من خمسين بالمائة بحسب حاله.

وإن اكتملت له تلك الأربع فقد حاز شبه الكمال وهو ٩٠٪.

ولا يمكن ها هنا تجزئة نسب الإخلاص – كما صنعت في المبحث السابق – فللإخلاص حد إذا نقص عنه فلا يقال بالنسب آنذاك.

- وأما الحد الأعلى فلا يمكن قياسه ولا يستطاع، والله أعلم، إنما يُنظر فيه إلى حال النبي الأعظم ﷺ وصالحي السلف إذ بهم يُقتدى، ويحاول المرء ما استطاع أن يتأسّى، والله المستعان.

- وقد صنف كثير من العلماء مصنفات في الإخلاص في بعضها تفصيل وتوسع يحتاج إليه أكثر الناس، فليرجع إليها من شاء.

مقياس التوبة:

للتوبة شروط وتفصيلات ذكرها العلماء ليس هذا مقام إيرادها، وفي ذكرها ها هنا تطويل لا حاجة لقارئ هذا الكتاب إليه؛ إذ هو موضوع لمن بلغوا غاية يستغنون بها عن تفصيلات عُنوا بها في بداياتهم، واهتموا بشأنها في أوائل سيرهم إلى الله تعالى.

والتوبة لها حدان: أدنى وأعلى، أما الأدنى فهو الإتيان بها إن عصى المرء وتجاوز حده، وخرج عن طاعة مولاه وغرته نفسه، فالتوبة هي المخرج آنذاك، وإن ألمّ بشيء بعد ذلك من الخطايا عاد إلى التوبة، وهكذا دواليك، فإن صنع المرء ذلك فقد حاز الحد الأدنى من القبول وهو ٥٠٪.

وأما الحد الأعلى فهو التوبة النصوح، وهي الإقلاع عن الذنب مع عدم المعاودة إليه إلى المممات، فهذا شأن أولياء الله – تعالى – الصالحين، والعاملين المصلحين، والقدوات من الدعاة، وهو أمر شديد صعب إلا على مَن يسره الله تعالى عليه، وأعانه على الوصول إليه، فإن صنع المرء ذلك حاز على شبه الكمال وهو ٩٠٪.

وقد يرتقى إلى الكمال وهو ١٠٠٪ بحسب الأحوال التي تعتريه بعد التوبة، وبقدر نفع تلك التوبة لنفسه ولغيره.

وبينهما مرتبة وهي أن يتوب في بعض الذنوب توبة نصوحًا، ويخفق في ذنوب أخرى، فيظل يتردد بين الذنب والتوبة إلى ما شاء الله تعالى، فإن صنع ذلك فهو متردد في النسبة بين ٥٠٪ – ٩٠٪، والله أعلم.

مقياس الهمة:

يصعب وضع مقياس للهمة لكن يُقَرَّبُ هذا بأن مقياس الهمة ينبغي أن يُكَوَّن من جزأين:

الجزء الأول: مقياس الهدف.

الجزء الآخر: مقياس العمل للوصول إلى الهدف.

ومهما كان هدف المرء عظيمًا لكن عمله لا يُسعفه للوصول إليه فليس هو صاحب همة عالية، ومهما كان عمله عظيمًا لكن هدفه ليس بذاك فلا يكون صاحب همة عالية.

وأعظم الأهداف تحقيق رضى الله - تعالى - فيما فيه منفعة عامة للأمة، ثم ما فيه منفعة ذاتية للمرء فيما يرضي الله تعالى، ويحوز المرء بهمته تلك على ١٠٠٪ ثم ٩٠٪ على التوالي.

ثم إن كان صاحب عمل جليل متواصل للوصول إلى هدفه حاز ١٠٠٪، وضابط هذا العمل الجليل هو تسخير المرء كل ما بقي له من وقته - بعد الفراغ من قضاء حاجاته الأساسية التي لا بد له منها - في سبيل تحقيق غايته، فهو إن أنفق ٥٠٪ من وقته حاز على خمسين بالمائة من هذا المقياس.

وصار مجموع ما حازه الأول ١٠٠٪ أو ٩٥٪ على الاختلاف الحاصل في غايته، وبيان ذلك أنه قد حاز على ١٠٠٪ من مقياس هدفه؛ لأنه أراد به منفعة الأمة، وقد أنفق كل ما بقي له من وقته لتحقيق غايته، يعني ١٠٠٪ أيضًا، فيكون مجموع ما حازه من مقياس في هدفه وفي عمله ١٠٠٪.

أما الآخر فقد حاز على ٩٠٪ فقط من هدفه لأن المنفعة فيه ذاتية، وحاز ١٠٠٪ من مقياس عمله لأنه سخر كل ما بقي له من وقته لتحقيق غايته فيكون مجموع ما حازه ٩٥٪.

وصار مجموع ما حازه الآخر هو ١٠٠٪ أو ٧٥٪، على الاختلاف الحاصل في عمله، وبيان ذلك أن الهدف قد حصل فيه على ١٠٠٪ وبقي

العمل، فإن أنفق كل ما بقي له من وقته بعد قضاء حاجاته الأساسية فيحوز على ١٠٠٪ أيضًا فيكون المجموع ١٠٠٪، وإن أنفق ٥٠٪ من وقته حاز على ٥٠٪ من المقياس، ويكون المجموع ٧٥٪.

وبينهما درجات من النسب لكن هذا مقياس تقريبي للهمة، والله أعلم.

مقياس الثبات:

الثبات على الإسلام والمبادئ العليا في العمل للتمكين لدين الله - تعالى - هو نعمة من أجلّ نعم الله، سبحانه، على العبد وأعظمها، ويصعب وضع مقياس للثبات لكن يقال على وجه التقريب: إن مَن كان في جُلّ أيامه ثابتًا على ما يحبه الله - تعالى - له ويرضاه فإنه يحوز على ٩٠٪.

ومن كان في جل أيامه متقلبًا لا يثبت إلا قليلًا فإنه يحوز على أقلّ من خمسين بالمائة، وبمعنى آخر إن مقياس الثبات لهذا المرء أقلّ من المقبول.

وما بين الخمسين والتسعين مراتب عديدة تُقَدّر بحال الشخص وما هو عليه في غالب أيامه.

مقياس الالتزام بالموعد:

والالتزام بالموعد أمر دال على حُسن العَهد، وكمال المروءة،

والاهتمام بما ضُرب الموعد من أجله، وقد أفردت هذا الموضوع بالتأليف قديمًا لِما وجدتُ من تفريط فيه فاق حد الإعذار، وتجاوز دعاوى الحاجة والاضطرار، وخرج عن سَنن الدعاة المصلحين والصالحين العاملين، حتى صار علامة على أهل عصرنا، ولم يقتصر التفريط فيه على أهل مصرنا، بل عَمّ وطمّ، وشمل كل الناس حتى صار من جملة ما أغم وأهمّ، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

والحد الأدنى الذي يصبح به المرء ملتزمًا بالموعد – عندي، والله أعلم– هو التالي:

أ- ألا يتخلف عن الموعد إلا بعذر قاهر.

ب- ألا يتأخر عن بداية الموعد بأكثرَ من خمس عشرة دقيقة.

ج- ألا يغادر قبل انتهاء الموعد إلا بعذر قاهر.

د- ألا يتأخر عن الموعد – على الوجه الذي ذكرته آنفًا – في أكثر من ثلث مواعيده الشهرية، فإن كان له في الشهر اثنا عشر موعدًا، فلا يتجاوز ما يتخلف فيه – على الوجه المذكور آنفًا – أربعة مواعيد، فإن تجاوز ذلك عُد مُفَرطًا لم يأتِ بالحد الأدنى الذي يخرج فيه عن سمة التخلف عن المواعيد أو التأخر فيها.

فإن كان المرء كذلك فقد حاز الحد الأدنى من الجودة وهو ٧٠٪.

- أما الحد الأعلى فهو الالتزام بالمجيء في الموعد في وقته تمامًا أو قبله لكن لا يزيد على عشر دقائق؛ لأن المضيف قد لا يكون مستعدًّا لاستقباله.

فإن تأخر في ثلث مواعيده في حدود خمس دقائق فلا يخرجه ذلك عن سمة الملتزمين بالوعد، والمحافظين على الوقت، فإن كان المرء كذلك فقد حاز على شبه الكمال وهو ٩٠٪.

وبين الحد الأعلى والأدنى درجات لا أجد في نفسي حاجة لذكرها، وليس بالقراء حاجة لبيانها، وذلك لأن الناس يدورون في مواعيدهم بين الحد الأعلى والأدنى غالبًا، فمن كان دائرًا بينهما ضُم إلى أقرب الفريقين، وأُلصق بأوْلى الحدين به، والله الموفق.

مقياس الأثر المتروك بعد الموت:

إن الموفق السعيد هو الذي يترك أثرًا بعد وفاته يستفيد الناس منه، والعمدة في هذا هو حديث رسول الله ﷺ: **«إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له»**[(١)].

وكذلك سأل الخليل إبراهيم - عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم - ربه الجليل أن يجعل له أثرًا محمودًا في هذه الحياة، فقال الله

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه : كتاب الوصية، باب ما يلحق بالإنسان بعد وفاته.

تعالى قاصًا قوله: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآَخِرِينَ﴾ [الصافات: ٨٤].

كيفية قياس الأثر:

من ترك أثرًا مطلقًا بعد وفاته كالصدقة الجارية، أو العلم النافع، أو الكتب النافعة، أو التلاميذ النجباء، أو طرائق الدعوة الحميدة، أو الولد الصالح، إلى آخر ما يمكن تركه من آثار في هذه الحياة، من ترك أثرًا كذلك فهو ابتداء يحوز على درجة القبول أي ٥٠٪.

ثم يُنظر إلى هذا الأثر من اعتبارات عدة:

أولها: عدد المستفيدين من الأثر.

وثانيها: مدى هذا الأثر واتساع انتشاره في الأرض، وهذا الجانب الثاني له بالجانب الأول نوع تعلق.

وثالثها: مدى استفادة الناس من هذا الأثر.

ورابعها: مدة بقاء هذا الأثر في الأرض.

وللتمثيل آتي بنبيين كريمين عظيمين هما الخليلان الأجلان: إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام، فسيدنا إبراهيم ملته هي الملة الإبراهيمية، واليهودية الأولى والنصرانية الأولى بُنيتا على ملته، واهتديا بهديها، وإلى الآن ينتحل أهل الدينين - على انحرافهما وضلالهما البعيد - ملته.

ودين الإسلام العظيم الخاتم فيه المعالم الحقيقية للملة الإبراهيمية الحنيفية.

وعلى هذا فاتساع أثر الملة الإبراهيمية عظيم، وانتشارها في الأرض كبير، وعدد المتبعين لها منذ وجودها في الأرض إلى اليوم تريليونات من البشر لا يحصرها إلا الله تعالى.

وبقاؤها في الأرض سيكون بإذن الله - تعالى - إلى آخر الزمان، ونهاية الدوران.

فحسبكم بهذا أثرًا، ولا أجد من نفسي إلا صغرًا عن تقويمه، وضعفًا عن التصدي له.

وكذلك أثر الملة المحمدية والطريقة المصطفوية النبوية في الأرض: اتساعًا، وانتشارًا، وعدد أتباع، وبقاءً في الأرض.

لكن إنما جئت بالنبيين العظيمين وملتهما ليظهر مرادي من ترك الأثر، لا ليحذو حذوهما أحد من البشر، فليس ذلك في طوق أحد، وليس هو مطلوبًا من أحد، فحَسْبُ الشخص اليوم أن يتبع النبي الأمي العظيم الذي اتبع ملة جده الخليل، عليهما أفضل الصلوات وأتم التسليم.

أما سائر الناس فأمرهم أوضح، فمن ترك أثرًا استفاد منه كثير من المسلمين على اتساع بلدانهم وانتشارهم وكثرة عددهم، وبقي هذا الأثر في الأرض فلم يندثر، من صنع هذا فقد حاز ١٠٠٪، وأمثل لهؤلاء بالأئمة الأربعة المتبوعين، فقد انتشرت مذاهبهم في الأرض واتبعها منذ

زمنهم إلى الآن خلق لا يحصى، ومن الأمثلة أيضًا الإمام النووي وانتشار كتبه خاصة «رياض الصالحين».

وكذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وانتشار كتبهما وأفكارهما.

وكذلك ابن حجر العسقلاني ومدرسته في الحديث.

وابن جرير الطبري وتفسيره.

وابن كثير وتفسيره أيضًا.

والإمام الغزالي وإحياؤه.

فهؤلاء آثارهم حائزة على ٩٠٪ - ١٠٠٪ ولا شك ولا ريب [1].

وأبطال الإسلام العظام كالصدّيق الأكبر وصنيعه في الردة.

والفاروق الأعظم وصنيعه في الفتوحات وغيرها.

وعمر بن عبدالعزيز وصنيعه في التجديد في الحكم ونشر العدل في الأرض.

---

(١) ٩٠٪ خاصة بالإمام الغزالي، وقد ضعف أثر كتابه شيئًا ما - قدرته بعشرة في المائة - لما حشاه به من أحاديثَ موضوعة، وبعض الشطحات والبدع.
ولقائل أن يقول: لماذا أعطيته هذه النسبة إذن وكتابه على ما وصفت؟ فأقول: إن كتابه جليل ومهم، وإن شابه ما ذكرته، وآثاره الباقية في غير الإحياء كثيرة ومهمة، ولهذا قلت إن أثره بلغ ٩٠٪. ولئن نظر الناظر إلى بقاء أعماله، وانتشارها في الأرض، واستفادة ملايين المسلمين منها ليسلمن بالتسعين بالمائة، والله أعلم.

وصلاح الدين[١] في تحرير بيت المقدس وإرجاعه إلى حظيرة الإسلام لمدة ثمانية قرون تقريبًا.

فهؤلاء وأمثالهم آثارهم قد بلغت النسبة العليا من ٩٠٪ - ١٠٠٪ ولا شك ولا ريب[٢].

وهناك ملايين كثيرون منذ الصدر الأول إلى الآن لهم آثار جليلة عظيمة.

والذي ينبغي أن يصنعه المرء اليوم أن يحاول جهده أن يترك أثرًا ينتشر في الناس من بعده، ويستفيد منه عدد كبير، فإن صنع كان قد تجاوز الحد الأدنى - وهو خمسون بالمائة - ويتدرج أثره إلى شبه الكمال، وهو ٩٠٪ بحسب قوة انتشاره واستفادة الناس منه، والله أعلم[٣].

***

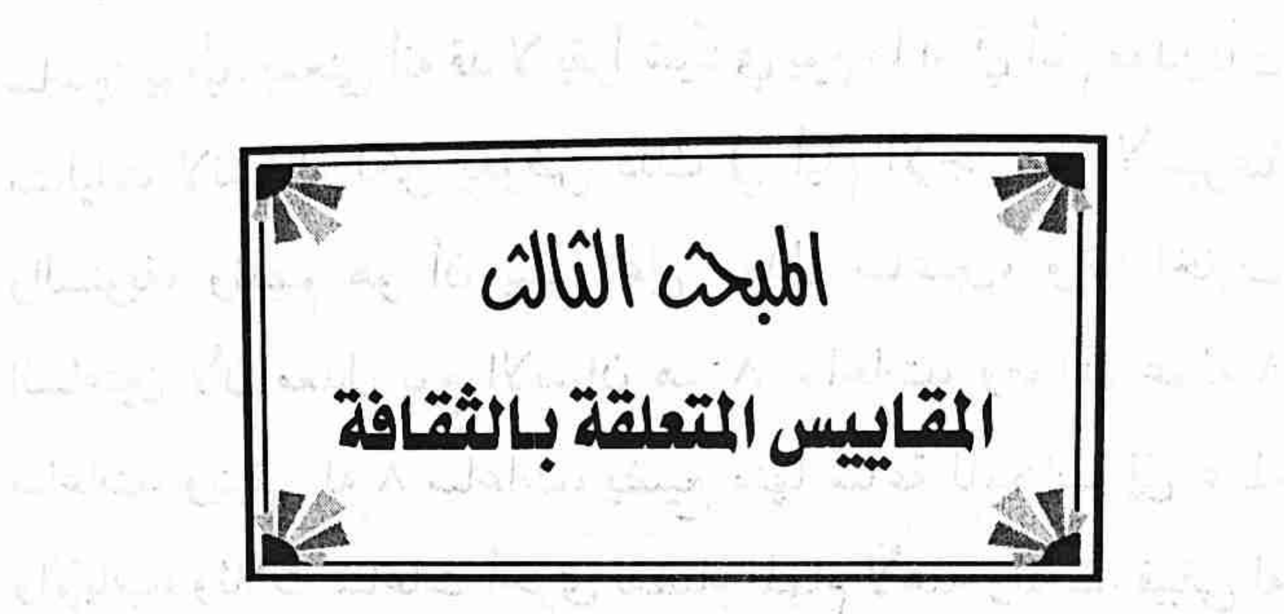
---

(١) صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي، أبو المظفر الدُّوينيّ التكريتي الأيوبي السلطان الكبير الذي فتح الله على يده بيت المقدس وطهّر بلاد الشام -إلا عكا- من الصليبيين. وكان له معهم الوقائع المحمودة. توفي - رحمه الله تعالى - سنة ٥٨٩. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» : ٢٧٨/٢١ وما بعدها.

(٢)كلهم قد حازوا ١٠٠٪ إلا صلاح الدين ، رحمه الله تعالى ، وذلك - عندي - لعدم ضبطه أمْرَ المملكة الأيوبية من بعده ؛ فقد عهد بها إلى أولاده وأولاد إخوته الذين ضيعوها فتفرقت من بعده شذر مذر ، ونتج عن ذلك الصنيع ضعف في جسد الدولة الإسلامية ، كما هو معلوم.

(٣) قد فصلت هذه المسألة - مسألة ترك الأثر - في كتاب «أثر المرء في دنياه» فليراجعه من شاء.





المبحث الثالث
المقاييس المتعلقة بالثقافة

الثقافة أمرها واسع وشأنها متشعب، وهي تُبنى على عدة أمور منها:

القــــراءة:

القراءة من الأمور المهمة التي يُقَصّر فيها أكثر الناس ولا يؤتونها حقها، لكن ما هو مقياس القراءة الجيدة؟ ومتى يُعَدُّ المرء قارئًا جيدًا؟

الذي ينبغي أن يُعلم ابتداءً أن مقياس القراءة الجيدة لا يمكن أن يكون مرتبطًا بعدد ساعات القراءة فقط، ولا بالمادة المقروءة فقط، إنما ينبغي أن يرتبط بالاثنين معًا، فمقياس القراءة الجيدة كمي وكيفي معًا، فلا يمكن أن يعد المرء قارئًا جيدًا وهو يقرأ نصف ساعة في اليوم أو ساعتين في الأسبوع، وفي الوقت نفسه لا يمكن أن يُعد المرء قارئًا جيدًا وهو يقرأ توافه الأمور وسِفْسافها ودناياها وينفق فيها جل وقت القراءة.

وأرى - والله أعلم - أن مقياس القارئ الجيد هو أن يقرأ بمعدل ساعتين يوميًا، بمعنى أنه قد لا يقرأ شيئًا في يوم ما أو في أيام معدودات متتاليات لانشغاله لكن يعوض ذلك في أيام الإجازات الأسبوعية والسنوية، والمهم هو أن يبقي على معدل ساعتين، وإنما اخترت الساعتين لأن معدل نوم الإنسان هو ٨ ساعات، ومعدل عمله ٨ ساعات، ويتبقى له ٨ ساعات، يضيع منها ساعة للذهاب إلى عمله والإياب، وثلاث ساعات أخرى لقضاء المهام لأهله ولنفسه فيبقى له أربع ساعات، فإن أمضى نصفها في القراءة فقد توسط وأجاد.

ثم إن المادة المقروءة تكمل الجزء الآخر من مقياس القراءة الجيدة؛ فالمرء إذا قرأ ما يفيده في شئون دينه ودنياه عُدّ قارئًا جيدًا، كأن يقرأ ليعرف دينه، وليرد الشبهات الواردة عليه، وليفقه كيفية إحسان صلاته وصيامه وزكاته وحجه، وليدرك المؤامرات التي تحاك ضد أمته وملته، أو أن يقرأ ما يفيده في دراسته أو وظيفته، وهكذا....

فإن اجتمع للمرء ساعتان من القراءة الجادة يوميًا عُد قارئًا جيدًا إن شاء الله، وأقدر ذلك بالنسب بسبعين في المائة، فإن أضاف ساعة أخرى ارتقت النسبة إلى ثمانين بالمائة، فإن ارتقت ساعة رابعة حاز المرء ٩٠٪ ويصعب الإضافة على هذا إلا للنادر من الناس، والنادر لا حكم له، والله أعلم.

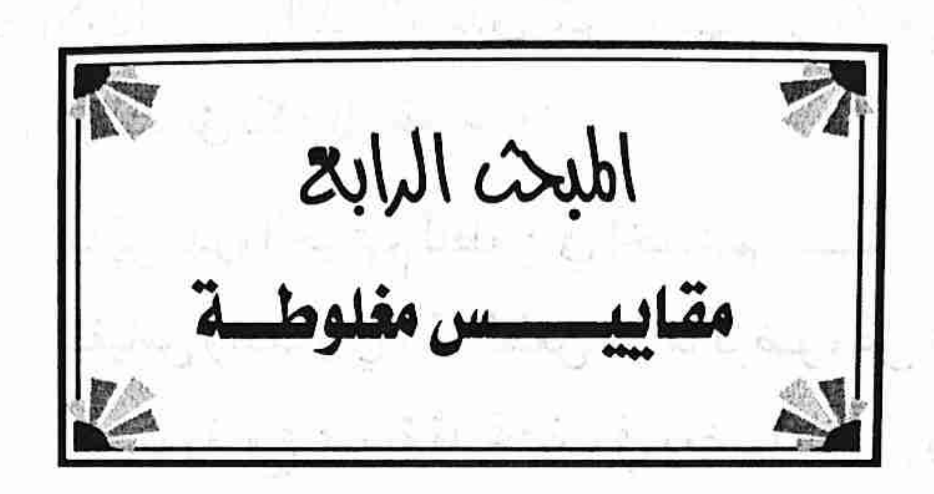
- أما السماع من المواد المسجلة فهو مصدر من مصادر الثقافة

لكن منزلته بعد القراءة، وكثير من الناس يجعل مصدره الأول للثقافة والفهم هو السماع، ولذلك آفات لا أرى ذكرها مناسبًا لهذا السياق، لكن أقول إن مقاييس القراءة آنفة الذكر يمكن اعتمادها مقاييس للسماع أيضًا.

- وهناك مصدر آخر للثقافة وهو السماع من الآخرين، وهو مصدر غير موثوق، أو يمكن القول إن الشكوك تحيط به من كل جهة، فلذلك لا أجد داعيًا لوضع مقاييس لمصدر كهذا، والله أعلم.

- والنظر والرؤية أقل مصادر الثقافة جدوى إلا ما كان منها مبنيًّا على الحس والإيقاف على الحقائق، وقضية وضع نسب لهذا المصدر أمر لا جدوى له.

***



المبحث الرابع
مقاييس مغلوطة

هناك بعض المقاييس ارتضاها أصحابها وظنوها مقاييس صحيحة، وهي - على الحقيقة - خادعة مغلوطة، ليست صحيحة، ولا قائمة على أسس سليمة.

هذا وإن أكثر من استبانت له معالم الآخرة، وظهر له تفاوت درجاتها الباهرة له نوع عمل للوصول إليها، والتنعم بنعيمها الأبدي الذي لا يزول ولا يحول، لكن هذا العمل قد لا يكون هو العمل الفاضل، أو قُل هو جهد مبذول لكن لا يأتي بكبير طائل، وكثير من الناس قد وقع في هذا الفخ فلم يعد يستبين ما هو عليه من الأعمال المفضولة، والبعد عن جلائلها المنقولة والمعقولة.

ولقد رأيت في مُدة عمري كثيرًا من هؤلاء ممن عجبت لأحوالهم، لكني موقن أن الله - تعالى - هو الهادي، وهو الآخذ بيد من يريد من

عبيده إلى ما يحبه لهم ويرضى.

ومن الأمثلة على أولئك العاملين لكن عملهم هو أشبه بالجري في غير مِضْمار، والتسابق لكن إلى غير غاية:

١- الذين نذروا حياتهم للطعن في إخوانهم المسلمين، وجعلوا المقياس والمعيار في هذا الطعن هو ما فرضوه على الناس من أصول وفروع عقدية قد تختلف في بعضها الفهوم والأنظار، فمن طعن طعنهم متكئًا على مقاييسهم فهو منهم، ومن اتقى الله فامتنع وجهت إليه السهام من كل جانب، فصار غاية جهدهم وقُصارى عملهم هو تتبع عورات الصالحين والعاملين، وإظهار ما خفي على الناس من مرجوح أعمالهم وأقوالهم، ولم يكتفوا بذلك بل تعدوا إلى اتهامهم في عقائدهم، والقدح في نياتهم!! وجهدوا في كل ذلك، وألّفوا الكتب ودبّجوا المقالات وسجّلوا الأشرطة في بيان ما هنالك، حتى فاقوا في صنيعهم هذا جميع إخوانهم ممن سلكوا طريقهم من الأولين والآخرين، فصاروا بذلك موضع السخرية من عقلاء العالمين، ومكانًا للإشفاق من صنيعهم، والتخوف مما يمكن أن يكون مصيرهم، فلله العجب من طائفة سلم من عملها ولسانها الصليبيون وإخوانهم من إخوان القردة وسائر أصناف الكافرين

والملحدين والعلمانيين والمنافقين والفاسقين والفاجرين، ووقعوا في جل العلماء والدعاة والمصلحين، وكل من صار له في الناس نوع قبول، وسخروا جهودهم من أعمال وأقوال للوقيعة في حزب الله الموحدين، وعباده الذين نحسبهم مخلصين.

وإنما قلت إن هؤلاء قد فاقوا مَن صنع صنيعهم لأنهم سخروا وسائل الإعلام التي بلغت مبلغًا عظيمًا في هذا العصر، سخروها لنشر باطلهم، وبث فسادهم، على وجه غير مسبوق، وجهد غير موفق ولا مشكور.

ولم يكتفوا بكل ذلك بل عمدوا إلى أكثر مما هنالك، عمدوا إلى شعوب تحررت من الطغيان، وشنيع الظلم والهوان فصاروا يحرضونها على الخروج على ولي الأمر بزعمهم، ويتهمونهم ويضللونهم، والإسلام من فهمهم براء، ولقد رأيتهم - لا كثرهم الله - في تونس وليبيا يشيعون في الناس هذا بعد زوال الطاغيتين، ونهاية الزنديقين، وكان الأجدر بهم وبمخازيهم التواري، والتوبة النصوح للباري، لكن ما الحيلة في قوم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، فيسيئون قولًا وفعلًا، ويدّعون انتسابهم إلى السلف، وهم من شر الخلف، ويقررون بزعمهم العقيدة الصحيحة، وهم على شفا جرف هارٍ، نسأل الله السلامة والعافية.



وأنا إن قمت بسرد ما يصنعون من مآسٍ، وما اقترفته أيديهم من البلاوي، وألسنتهم من المخازي، لا يكفيني -والله- مجلد كبير، إنما يكفي الإشارة إليهم في هذه العجُالة للدلالة على قوم يعملون ويجتهدون لكن عملهم مرجوح ومفضول، بل أجزم أن كثيرًا منه محرم شرعًا ومدخول، ولقد كتب كثير من المشايخ تبيانًا لمخازيهم فليرجع إليها من شاء.

٢- ومن هؤلاء جماعة كُثُر من الصالحين ممن لا يكاد يكون لهم عمل مؤثر في هذه الحياة، بل تدور حياتهم على وظائفهم الدنيوية، وعلى رعاية مَن يلوذ بهم من أهل وأولاد، أما شأن المسلمين، وأحوالهم، فهم عنه بمنأى، وأما الأعمال الفاضلة الموصلة إلى رضى الله – تعالى - والدرجات العُلى من الجنة فهم عنها قد خُدعوا، وبغيرها قد شغلوا، ويُرضي هؤلاء أنفسهم ببعض الأعمال الصالحة التي هي جيدة لكنها مفضولة في الجملة.

وحجتهم في ذلك، ومقياسهم الذي قاسوا به عملهم وعمل الآخرين هو بضعة أحاديث فهموها على غير وجهها، نحو «كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت» [1]، وحديث «خيركم خيركم لأهله وأنا

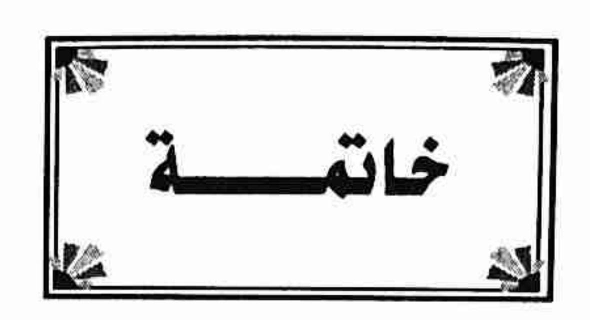
(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، وأبو داود في سننه، وهو عند مسلم بلفظ مقارب، والحديث صحيح.

خيركم لأهلي»(١)، وأمثال هذه الأحاديث الشريفة المنيفة، لكنهم لم يتفطنوا إلى أن النبي الأعظم ﷺ كان في شُغل شاغل دائمًا في أمر الأمة، والصحابة - رضي الله تعالى عنهم - فتحوا البلاد، وأثاروا قلوب وعقول كثير من العباد، واستغرق ذلك من أكثرهم جل أوقات حياتهم، بل كان كثير منهم يترك أهله ولا يرجع إليهم بل يستشهد في ساحات الوغى والشرف، وحسبكم أن ثمانية آلاف وخمسمائة من الصحابة - رضي الله عنهم - والتابعين استشهدوا في أيام القادسية الأربعة!! وهذا رقم كبير في تلك الأيام، وهذه المسألة كبيرة، وقد ناقشتها في مكان آخر بتوسع(٢).

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه الإمام الترمذي في سننه وجماعة آخرون، وصححه الشيخ الألباني.
(٢) انظر «عجز الثقات»، و «الثبات»، و «الهمة»، و«أثر المرء في دنياه»، و «الترف» وغير ذلك من الكتب.



خاتمـــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد حاولت أمرًا صعبًا في هذه الرسالة، ولا أدري هل فتحت بابه لتلج منه أعمال أخرى أوسع وأقوى، أو أن الباب بقي موصدًا؟ وهل أضأت شيئًا من الطريق بهذه الرسالة، أو أن الأمر ما زال غامضًا؟

لا أدري لكن حسبي ما صنعت، وهذا الذي قدرت عليه، ووفقني الله له، فإن أصبت فمن الله تعالى، وإن أخطأت فمني ومن عدوي الشيطان الرجيم، والله المستعان وعليه التكلان، والحمد لله رب العالمين.

***

فهرست الموضوعات



***

دار الطباعة والنشر الإسلامية
العاشر من رمضان - تليفاكس: ٣٦٢٣١٣-٣٦٢٣١٤/٠١٥
مكتب القاهرة - ت: ٠٢٢٤٠٣٨١٣٧ - ٠٢٢٤٠١٧٠٥٣